روايات عالمية للجيب 74

أفضل قصص الأشباح



تأليـــف : مجموعة من الكُتَّاب

ترجمة وإعداد : د . أحمد خالد توفيق

كراس (كانون ألبريك)

بقلم مونتاج رود جيمس



(مونتـــاج رود جيمس) كاتب بريطانى وأسـتاذ جامعى فى كمبردج . ولد عام 1862 واشتهر بقصـصه عن الأشباح التى تعتبر من أفضل ما كتـــب في الأدب الإنجليزى . وتدين له قصص الأشباح بالتخلص من الفخ القوطي الذى كانت حبيسة فيه لتصير أكثر عصرية .

مدينة (سان برنار دو كومنجز) مدينة عتيقة عند تخوم جبال البرانس غير بعيدة عن تولوز . وكانت مقر الأسقفية حتى الثورة الفرنسية ، وفيها كاتدرائية يزورها سياح كثيرون . لن أطلق على المكان اسم مدينة لأن سكانها لم يتجاوزوا الألف .

فى ربيع عام 1883 زار هذا المكان رجل إنجليزى . كان طالبًا فى كمبردج جاء خصيصًا ليرى الكاتدرائية . وترك صديقيه غير المهتمين بالآثار فى فندقهما بتولوز.

جاء الشاب فى الصباح مبكرًا ، وقرر أن يملأ دفترًا صغيرًا ويلتقط شرائح لكل ركن من هذه الكنيسة الباهرة التى تطل من فوق جبل (كومنجز) . كان عليه أن يحتكر جهود حارس الكنيسة لهذا اليوم ، وقد استدعت هذا الأخير المرأة السوقية التى تدير حانة (شابو روج) . جاء الرجل فوجده الإنجليزى مثيرًا للاهتمام فعلاً . ليس السبب أنه عجوز أشيب فكل حراس الكنائس فى فرنسا لهم ذات المظهر .. الفكرة هى الجو القاتم الكئيب المحيط به . كانت عضلات ظهره مقوسة بطريقة عصبية غريبة كأنه يخشى أن يمسك به عدو له فى أية لحظة . ربما يعطى الانطباع بزوج مقهور تلومه زوجته طيلة الوقت .

على كل حال سرعان ما غرق الإنجليزى (وسوف نسميه دنيستون) فى مفكرته وانشغل بالكاميرا .. بعد قليل خطر له أنه يؤخر العجوز ويعطله عن الغداء ..

قال للرجل فى النهاية :

ـ « ألن تذهب لبيتك ؟ .. يمكننى أن أفرغ من مذكراتى هنا .. بوســعك أن تغلق البــاب على لو أردت . أنا بحــاجة لساعتين لا أكثر .. »

بدا كأن العجوز شعر بهلع لا يوصف .. وقال :

ـ « رباه !.. لا يمكن التفكير فى شىء كهذا . أترك السيد وحده ؟.. سوف أبقى معك مهما طال الوقت . شكرًا للسيد .. »

خلال ساعتين كان قد صور ورسم ووصف كل شىء فى الكنيسة وحتى الأرغن المتداعى والجوقة والمقاعد والنقوش . وطيلة الوقت ظل الحارس يقتفى خطوات دنيستون وإن كان يهب فى أية لحظة يسمع فيها صخبًا من مكان ما . يقسم دنيستون إنه سمع ضحكة معدنية طويلة قادمة من أحد الأبراج ، فنظر متسائلاً نحو العجوز ، لكن هذا لم يرد وإن بدت شفتاه بيضاوين كالورق .

حادث آخـــر غريب عندما كان يتفحص المذبح حيث علقت لوحة لإحدى معجزات سان برنار . وتحتها كتبت عبارة باللاتينية تقول : « كيف أنقذ سان برنار رجلاً حاول الشيطان أن يخنقه » . استدار للرجل فوجده يركع على ركبتيه وقد بدا عليه هلع حقيقى . ثم بدأ سيل من الدمع يتدفق من عينيه .

تظاهر دنيستون بأنه لم ير شيئًا . لكنه تساءل عن السبب الذى أحدثت به لوحة بدائية كهذه هذا التأثير فى العجوز . لديه تفسير لا بأس به هو أن الرجل كان مجنونًا بفكرة واحدة .. لكن ما هى ؟

فى الخامسة بدأ الليل يدنو وامتلأت الكنيسة بالظلال . تعالت الأصوات الخافتة وهذا بالطبع نتيجة ضعف الضوء وإرهاف حاسة السمع . للمرة الأولى بدا حارس الكنيسة قلقًا متعجلاً .. وقد أطلق تنهدة راحة عندما حزم البريطانى الكاميرا والأوراق . اقتاد دنيستون بسرعة إلى الباب الغربى تحت البرج . كان وقت دق جرس (الأنجليوس) قد جاء . وراحت الدقات تتردد فى الجبال طالبة من الناس أن يتذكروا فى صلواتهم سيدة الرسل . هنا غادر الرجلان الكنيسة .

قال العجوز :

ـ « يبدو أن السيد مهتم بكتب الصلوات القديمة .. »

ـ « بلا شك .. أردت أن أعرف إن كانت هناك مكتبة فى البلدة ... »

ـ « لا يا سيدى .. كانت لدينا واحدة صغيرة ، لكن لو كان السيد مهتمًا بالكتب فلدى فى بيتى شىء قد يثير اهتمامك .. »

هنا توهجت آمال دنيستون فى أن يجد مخطوطات منسية عظيمة القيمة فى هذا الجزء من فرنسا .. بالطبع لا يمكن أن يكون مكان كهذا لم يفحصه الهواة بعناية ، لكن من الحماقة ألا يذهب مع الحارس ليرى . لو لم يفعل للام نفسه للأبد .

لكن المشوار كان بعيدًا لدرجة أنه بدأ يخشى أن يكون الرجل ينوى اختطافه كبريطانى ثرى ، وحرص على أن يعلن عدة مرات أن له صديقين سيلحقان به . لدهشته بدا كأن هذه المعلومة أراحت الحارس :

ـ « عظيم .. عظيم .. السـيد سيسافر بصـحبة أصدقائه .. هذه فكرة ممتازة ! »

وصلا لبيت الرجل ، وكان مبنيًا من الحجارة وعلى الباب كان درع (البريك دو موليون) وهو أحد الأسلاف . كانت البناية متحللة تمامًا كأى شىء آخر فى هذه البلدة .

عند العتبة توقف الحارس للحظة وقال :

ـ « ربما .. ربما .. السيد ليس لديه الوقت ؟ »

ـ « بالعكس .. لدى الكثير جدًا من الوقت .. »

انفتح الباب وأطل وجه .. وجه أصغر بكثير من الحارس لكن عليه ذات النظرة المذعورة . كان من الجلى أن صاحبة الوجه هى ابنة الحارس . كانت فتاة قسيمة جميلة ويبدو أنها سرت لما رأت الغريب الوسيم مع أبيها .

تبادلت بعض تعليقات مع أبيها لم يتبين البريطانى منها سوى كلمات (كان يضحك فى الكنيسة) فلم ترد الفتاة إلا بنظرة هلع . بعد قليل كان يجلس داخل البيت جوار النار التى تتوهج فى المدفأة . على جانب الغرفة كان ما يشبه محرابًا صغيرًا به صليب عملاق يصل للسقف تقريبًا . تحت الصليب كان هناك صندوق ضخم عتيق . أحضر الحــارس مصــباحًا واتجه لهذا الصندوق ، وفى عصبية أخرج منه كتابًا عملاقًا ملفوفًا فى قماش أبيض .

شعر دنيستون بحماسة لأن حجم الشىء لا يوحى بكتاب صلوات .. كان أمامه مجلد ضخم عليه إشارة (كانون ألبريك دى مولون) بالذهب . لابد أن عدد صفحاته كان مئة أو أكثر . هنا كانت عشر ورقات مــن ســفر التكوين برسوم لا يمكن أن تكون أحدث من عام 700 . لابد أن هذه النصوص اللاتينية مهمة جدًا .

هكذا لم يعد يفكر إلا فى شىء واحد .. هذه الكتب يجب أن تعود لكامبردج معه . حتى لو سحب كل ما لديه من مال من المصرف . نظر للحارس متسائلاً فقال هذا :

ـ « لو أن السيد قلب الصفحات إلى النهاية .. »

فعل دنيستون كما طلب منه ، فوجد ورقتين حديثتين أثارتا دهشته . على الورقة الأولى وجد خارطة واضحة ومألوفة لأى شخص يعرف ممرات وأديرة (سان برنار) وكانت هناك كلمات عبرية وصلبان . تحت الخارطة كانت كلمات لاتينية تقول :

Responsa 12mi Dec . 1694 . Interrogatum est : Inveniamne? Responsum est : Invenies . Fiamne dives? Fies.Vivamne invidendus? Vives . Moriarne in lecto meo? Ita."

وترجمتها : « هل سأجده ؟.. الإجابة : سوف تفعل . هل أصير ثريًا ؟.. الإجابة : ستصير .. هل يحسدنى الناس ؟.. الإجابة : نعم .. هل أموت فى فراشى ؟.. الإجابة : ستموت .. »

قلب دنيستون الصفحة فرأى صورة لم يعد لهـا وجـود اليوم ، لكن هناك صورة فوتوغرافية لها ما زالت عندى . كانت رسمًا بالسيبيا من القرن السابع عشر يمثل مشهدًا من التوراة . على اليمين ترى ملكًا على عرشه والعرش يرتفع 12 درجة .. من الواضح أنه الملك سليمان . ينحنى للأمام فى وضع من يأمر ، ونصف الصورة الأيسر هو الأهم .. هناك أربعة جنود يحيطون بشىء سوف أصفه بعد قليل . هناك جندى خامس يرقد ميتًا وقد تحطم عنقه وبرزت عيناه . الجنود الأربعة ينظرون للملك وقد بدا عليهم الرعب . الشكل الذى يحيط به الحراس كان مرعبًا بالفعل ، وقد جرؤت على أن أريه لرجل متزن خبير فى علم المورفولوجى ، فكانت النتيجة أنه رفض أن يكون وحده طيلة الليل ، ولليال عدة رفض أن يطفئ النور عندما ينام .

لم يكن بوسعك أولاً أن تفهم كُنه هذا الشىء لأنه محاط بشعر خشن كثيف .. لكن له عضلات متوترة كالسلك . العينان لونهما

أصفر ومخيفتان تنظران للملك بشىء من المقت والذعر . يمكنك أن تتصور عنكبوتًا مخيفًا من أمريكا الجنوبية لتتصور شكل هذا الشىء . لكن التعبير الذى يقوله جميع الذين رأوا الصورة هو : "إنها مرسومة من مشهد واقعى .. »

هنا رفع دنيستون عينيه ليسأل :

ـ « هل هذا الكتاب للبيع ؟ »

ساد جو من التردد ثم فجأة جاءت الموافقة :

ـ « لو أراد السيد .. »

ـ « كم ؟ »

ـ « سآخذ 250 فرنكًا .. »

كان هذا ثمنًا مخجلاً.. هناك أشياء تحرك حتى ضمائر هواة المجموعات ، لذا قال دنيستون :

ـ « أيها الصديق الطيب .. كتابك يساوى أكثر من هذا .. أكثر بكثير .. »

ـ « سوف آخذ 250 فرنكًا .. لا أكثر .. »



كان من المستحيل رفض فرصة كهذه .. تم الدفع وأخذ إيصالاً وهنا بدا أن الحارس صار رجلاً آخر.. بدأ يضحك وكف عن النظرات العصبية . وقال له :

ـ « سوف أنال شرف اصطحاب السيد للفندق .. »

ـ « لا ... هـــذا يبلغ مائتى يارده .. سوف أعــود وحدى والقمر بدر على كل حال .. »

كرر الرجل الطلب ثم قال :

ـ « إذن فليمش السيد فى منتصف الطريق لأن جانبى الطريق وعران .. »

كان دنيستون متشوقًا للعودة ودراسة ما اشتراه ، لذا غادر المكان . هنا قابلته الفتاة وقد بدا أنها تريد أن تأخذ منه ما أبقاه أبوها معه من مال :

ـ « هل يرغب السيد فى قلادة وصليب فضى ؟ »

لم يكن راغبًا فى هذه الأشياء ، لكنه فوجئ بأن الفتاة تعرض هذه الأشياء ولا تريد مالاً . كانت لهجتها لا تترك له فرصة للرفض .. هكذا أخذ منها القلادة ووضعها حول عنقه ، والغريب أنه شعر بأنه اسدى لها خدمة لا توصف ..

ظلا يراقبانه وهو يرحل ، حتى لوح لهما مودعًا عند بداية طريق (شابو روج) .

تم تقديم العشاء فاختلى دنيستون بنفسه فى غرفته . لا يعرف السبب لكنه بدأ يشعر بعدم راحة .. شعور معين من القلق جعله يشعر بأنه فى حالة أفضل لو أراح ظهره للجدار . لكن هذا لم يكن يقارن بما وجده ..

قال لنفسه :

ـ « بورك (كانون ألبريك) !.. ترى أين هو الآن ؟.. أتساءل عن أهمية ذلك الصليب الذى أصرت الفتاة على أن أحمله معى .. ثقيل جدًا ومتعب لدى وضعه حول العنق .. والمقلق أن أباها بالتأكيد ارتداه لأعوام .. لابد من تنظيفه جيدًا .. »

نزع الصليب ووضعه على المنضدة هنا لاحظ شيئًا على قطعة قماش حمراء تحت مرفقه الأيسر . بسرعة تخيل ثلاثة أشياء عن كنه هذا الشىء ..

ـ « ممسحة للقلم ؟.. لا .. لا شىء كهذا هنا .. فأر ؟.. لا .. هو أسود جدًا .. عنكبوت كبير ؟.. لا .. يد كاليد التى كانت فى الصورة ؟! »

فى لحظة تذكر كالبرق تلك اليد .. الجلد الشاحب الذى يغطى العظام وشعر خشن ومخالب تمتد للأمام متقوسة ..

وثب من مقعده شاعرًا بهلع يعتصر قلبه . الشىء الذى كانت يده اليسرى تستند إليه يرتفع من خلف المقعد . كان الشعر الأسود يغطيه كما فى الصورة .. الفك السفلى رفيع جدًا .. انيابه واضحة خلف الشفتين السوداوين ولا أنف .. والعينان الصفراوان تلمعان بظمأ حارق لتدمير الحياة .. هناك نوع من ذكاء فيهما .. ذكاء يفوق ذكاء الوحش لكنه أقل من ذكاء البشر ..

كان الذعر قد بلغ ذروته مع دنيستون.. تكلم لكنه لا يعرف ما قال .. يذكر فقط أنه صرخ وأنه أمسك بالصليب الفضى بينما الشىء يقترب منه . صرخ بصوت كأنه حيوان فى ألم عظيم .

لم ير (بيير) و(برتران) الخادمان شيئًا عندما اندفعا للحجرة .. لكنهما دُفعا للجانب بوساطة شىء مر بينهما .

أمضى الخادمان الليل معه ، ووصل صديقاه فى التاسعة من صباح اليوم التالى . كان هو قد عاد لطبيعته فى ذلك الوقت برغم ما اعتراه من ذعر .

عند الظهر وصل حارس الكنيسة واصغى للقصة كما حكتها له صاحبة النزل ، فلم يبد مندهشًا . لم يقل سوى :

ــ « إنه هو !.. لقد رأيته بنفسى !.. »

وكان يردد :

ــ « سوف أنام قريبًا جدًا .. ولسوف تكون راحتى حلوة .. لماذا تضايقوننى ؟ »

لن نعرف أبدًا ما قاساه هو أو (كانون ألبريك دو مولون) . فقط على ظهر الصورة المخيفة كانت هناك سطور لاتينية ربما تلقى الضوء على الموقف .

لم أفهم قط نظرة دنيستون للأحداث . فقط قال لى ذات مرة :

ــ « نبى التوراة أشعيا كان رجلاً شديد الحساسية .. ألم يتكلم عن الوحوش التى تعيش فى خرائب بابل ؟ هذه الأشياء لا نفهمها فى الوقت الحالى .. »

فى العام الماضى ذهبنا إلى كومنجز لنزور قبر (كانون ألبريك) . إنه بناء من الرخام عليه تمثال لكانون . وقف دنيستون لفترة يتكلم مع راعى الكنيسة ولما ابتعدنا قال لى :

ـ « آمل ألا يكون هذا خطأ .. تعرف أننى أنتمى للكنيسة المعمدانية لكنى طلبت أناشيد جنائزية وقداسًا لألبريك دو مولون كى يظفر بالراحة .. »

الآن تجد الكتاب فى مجموعة (ونتورث) بكامبردج .. اللوحة التقطت لها عدة صور ثم أحرقت بوساطة دنيستون عندما غادر كومنجز لأول مرة . لا نعرف الكثير عن هذه القصة لكن اللوحة رسمها (ألبريك دو مولون) نفسه وعنوانها (سليمان وشيطان الليل) . وقد مات مولون نفسه أثناء نومه فى نوبة غامضة لم يعرف أحد سببها قط .

البيت والعقل

بقلم إدوارد بولوير لوتن



شاعر وسياسي وكاتب مسرحى وقصصى بريطانى. ولد عام 1803. كانت له شعبية عظيمة وحقق ثروة من قلمه . توفى عام 1873. يقـدم لنا هنا قصة أشباح تذكرك بقصة الغرفة الحمراء لويلز أو 1408 لستيفن كنج .

قال لى صديقى هو كاتب وفيلسوف ، بلهجة تجمع بين المزاح والجـد :

ــ « تخيل !.. منذ التقينا آخر مرة وجدت بيتًا مسكونًا فى قلب لندن ! »

ــ « مسكون ؟.. وبم ؟.. أشباح ؟ »

ــ « لا يمكننى أن أجيب عن هذا السؤال .. كل ما أعرفه أننى وزوجتى كنا نبحث عن شقة مفروشة منذ ستة أسابيع .. رأينا فى شارع لافتة تقول (شقق مفروشة) وناسبنا هذا .. استأجرنا الشقة وتركناها بعد ثلاثة أيام لأنه ما من قوة كان يمكن أن تقنع زوجتى بالبقاء .. »

ــ « ماذا رأيتما ؟ »

ــ « معذرة .. لا أريد أن يسخر منى أحد كمخرف .. فقط أقول لك إن المشكلة لم تكن فيما رأينا وسمعنا .. ومن حقك أن تفترض أنها تخاريف خيالنا الخاص .. لكن ما جعلنا نفر كان الذعر غير المحدد الذى نشعر به كلما اجتزنا مدخل غرفة غير مفروشة لم نر فيها أى شىء .. والأغرب أننى وافقت زوجتى

لأول مرة فى حياتى ــ برغم أنها امرأة سخيفة ــ وقررت أن البقاء يومًا آخر أمر مستحيل .. لهذا استدعيت المرأة المشرفة على البيت وقلت لها إننا سنفارق البيت ، فقالت بجفاف إنها تعرف السبب وإننا بقينا فى البيت أكثر من أى ساكن آخر .. لكن من الواضح أنهم كانوا رفيقين بكم .. »

سألتها باسمًا :

ــ « هم ؟ »

ــ « يسكنون المنزل .. لا أهتم بهم . أنا الآن مسنة ولابد أن اموت يومًا ما .. وسوف ألحق بهم .. »

لم أهتم بسؤالها عن المزيد ورحلت مع زوجتى ونحن فى غاية السرور ..

قلت له :

ــ « أنت تثير فضولى .. لا أشتهى شيئًا مثل النوم فى بيت مسكون . أرجو أن تعطينى عنوان هذا البيت .. »

أعطانى صاحبى العنوان وهكذا مشيت للبيت .



يوجد هذا البيت شمالى شارع أكسفورد . كان مغلقًا بلا لافتة فى النافذة ولم يرد أحد على دقاتى . كدت أنصرف عندما ظهر صبى صغير ممن يجمعون زجاجات الجعة وقال لى :

ــ « هل تريد أحدًا هنا يا سيد ؟ »

ــ « سمعت أن البيت للإيجار .. »

ــ « المرأة التى تعنى به قد ماتت ، لها ثلاثة أسابيع ولا أحد يريد أن يبقى هنا برغم أن مستر (ج) عرض الكثير . عرض على أمى جنيهًا كاملاً كى تفتح النوافذ فقط لكنها رفضت .. »

ــ « ولِمَ لا ؟.. »

ــ « البيت مسكون .. وقد ماتت العجوز التى تعنى به فى فراشها . يقولون إن الشيطان خنقها .. »

ــ « هل مستر (ج) هو مالك البيت ؟ »

ــ « نعم .. »

ــ « ماذا يعمل ؟ »

ــ « لا شىء يا سيدى .. مجرد سيد أعزب .. »

منحت الصبى ثمن معلوماته وانطلقت أبحث عن عنوان مستر (ج) . كان من حسن حظى أن وجدته فى داره .. رجل مسن له ملامح ذكية . قلت له إننى سمعت أن البيت مسكون ولدى رغبة قوية فى فحص بيت بهذه الصفات . أناراغب فى المبيت فيه ولو ليلة ولسوف أدفع لك .

قال لى :

ــ « يمكنك يا سيدى أن تستأجر المنزل لأية فترة تروق لك قصيرة أو طويلة . لا كلام عن الإيجار إذا استطعت أن تميط اللثام عن السر الذى يجعله بلا نفع لى .. لا أستطيع أن أجد خادمًا ينظفه لى أو يرد على الباب .. البيت مسكون فعلاً ليس فقط فى الليل بل فى النهار . المرأة المسكينة التى كانت تعيش فيه كانت امرأة ذات تعليم راق وهى المخلوق الوحيد الذى قبل أن يقيم هناك . موتها المفاجئ جعل من المستحيل أن أجد ساكنًا بعدها أنا مستعد لأن أمنح البيت مجانًا لمن يدفع الضرائب العقارية عليه .. »

ــ « منذ متى هو سيئ السمعة ؟ »

ـ « لا أستطيع أن أقول .. لكنه منذ زمن بعيد .. قالت العجوز إنه كان مسكونًا عندما استأجرته منذ عشرين لثلاثين عامًا . المشكلة هى أننى قضيت حياتى فى شرق الانديز وعدت لإنجلترا منذ عام لأرث ثروة عمى وكان ضمنها هذا البيت . وجدته مغلقًا وقيل لى إنه مسكون ... بدت لى فكرة سخيفة وأنفقت بعض المال على تجديده . وكان أول مستأجر (كولونيلاً) وأسرته .. لم يبق سوى يوم واحد ثم رحل .. وبرغم أن كل واحد منهم حكى قصة مختلفة عن البيت وما رآه فقد جمع بينهم أنهم رأوا شيئًا مخيفًا . وهكذا جعلت تلك العجوز تقيم فيه .. ولاحظت أن كل من حاول الإقامة فيه وفرّ كان يحكى قصة مختلفة عما حكاه سواه . ادخل البيت لترى بنفسك لكن تأهب لرؤية أشياء .. ولتعد ما يلزم لك .. »

ـ « ألم تشعر بفضول كى تمضى ليلة بنفسك ؟ »

ـ « بلى .. جربت لكن ليس ليلة .. جربت ثلاث ساعات فى النهار.. ليس ذنبى أننى لست بالغ الشجاعة ، ولهذا لا أنصحك بأن تجرب ما لم تكن قوى الأعصاب عظيم التصميم .. »

أبديت إصرارى فلم يقل الرجل الكثير . تناول المفاتيح وأعطاها لى . شكرته بحرارة لصراحته . هرعت بعد ذلك لخادمى المخلص الذى أعرف شجاعته وثبات أعصابه الذى يفوق أى شخص عرفته ، وقلت :

ـ « (ف) .. هل تذكر خيبة أملنا فى ألمانيا عندما لم نجد شبحًا فى تلك القلعة ؟.. هناك بيت فى لندن مسكون .. وأنوى أن أنام فيه الليلة .. أنا متأكد مما سمعت من أن شيئًا سيظهر .. شيئًا مفزعًا .. هل تعتقد أنك لو قضيت الليل معى سوف تحتفظ برباطة جأشك ؟ »

قال فى سرور :

ـ « ثق بى يا سيدى .. »

ـ « ممتاز .. هذه هى المفاتيح فخذها .. اسبقنى إلى البيت .. المنزل لم يسكن منذ بيع لذا أوقد نارًا وقم بتهوية الغرفة المختارة للنوم .. خذ معك مسدسى وخنجرى وما يلزمك من سلاح .. »

قضيت باقى اليوم فى أعمال أنستنى المغامرة التى انتويت القيام بها . ثم تناولت عشائى وأنا أقرأ

وفى التاسعة والنصف انطلقت نحو البيت ومعى كلبى المفضل ..

كانت ليلة باردة والسماء مكفهرة لكن هناك قمرًا شاحبًا .. وأدركت أن السماء ستكون صافية بعد منتصف الليل . دققت الباب ففتح لى خادمى الباب بوجه مسرور .

ــ « كله تمام يا سيدى ومريح جدًّا .. »

ــ « غريب .. ألم تسمع أو تر شيئًا غريبًا ؟ »

ــ « يجب أن أقر بأننى سمعت شيئًا غريبًا .. صوت أقدام خلفى مع أصوات همس قرب أذنى .. »

ولم يكن خائفًا مما طمأننى أنه مهما حدث فلن يتخلى عنى .

هنا تصلبت عيناى على الكلب .. كان يركض فى شغف أولاً ، لكنه الآن عند الباب يخدش بمخالبه ليخرج . ربت على رأسه مرارًا فبدأ يهدأ قليلاً .. فتشنا القبو والمطبخ وكانت زجاجات الخمر مغطاة بالعناكب مما دلنا على أن الأشباح ليست مدمنة خمور . وجدنا قبوًا فى الخلفية ..

هنا ظهر أول شىء غريب أراه هنا . رأيت أثر قدم يتشكل على الأرضية الرطبة .. تصلبت وأمسكت بساعد خادمى ليرى

بنفسه . هنا ظهرت قدم أخرى .. واصلت القدمان الحركة وكانتا صغيرتين .. قدمى صبى .. وعندما بلغت الجدار الآخر توقفت .

تفقدنا قاعة الطعام وغرفة يبدو أنها مخصصة لسائق .. كل شىء كان ساكنًا . انتقيت غرفة وجلست إلى منضدة بينما أشعل خادمى الشمعدان .. هنا تحرك مقعد أمامى إلى الجدار بسرعة وبلا صخب ثم سقط جوار مقعدى .

قلت ضاحكًا :

ــ « على الأقل هذا أفضل من الموائد المقلوبة .. »

هنا نبح كلبى بقوة . خيل لى أننى أرى ملامح ضبابية لإنسان ، لكنها ضبابية جدًّا لدرجة أننى شككت فى بصرى . قلت لخادمى (ف) :

ــ « أعد هذا المقعد لمكانه... أعده للجدار .. »

هنا قال (ف) :

ــ « هل هذا أنت يا سيدى ؟ »

ــ « أنا ماذا ؟ »

ــ « هناك من ضربنى على كتفى .. حسبته أنت .. »



غادرنا هذه الغرفة فقد كانت باردة فعلاً ، وأغلقنا الباب بإحكام .. هذه حركة احتياطية قمنا بها فى أية غرفة دخلناها .

كانت غرفة النوم التى اختارها لى هى الأفضل .. هناك نافذتان تطلان على الشارع ، وهناك نار مبهجة أمام الفراش مباشرة .. وكانت تتصل بالغرفة التى اختارها خادمى لنفسه . تفقدنا الجدران وخزانات الثياب .. كانت الجدران مصمتة وهى التى تكون جدار البيت .. بينما الخزانات خالية تمامًا إلا من شماعات لثياب نسائية .

كان هناك باب موصد بعناية .. فقال خادمى فى توتر :

ـ « سيدى .. هذا الباب كان مفتوحًا .. أنا فتحته قبل هذا ولا يمكن غلقه من الداخل .. »

هنا انفتح الباب بقوة .. فتبادلنا النظرات .

اندفعت أدخــل الغرفة فوجدتها غرفــة صغيرة بلا أثاث .. لا بساط .. لا أبواب سوى الذى دخلنا منه . وقفنا ننظر حولنا .. هنا انغلق الباب !... لقد سُجننا !

وللمرة الأولى شعرت برعب عظيم ..

لكن خادمى كان أبعد ما يكون عن الذعر وقال لى :

ـ « لا يمكن أن يحسبوا أنهم سجنونا يا سيدى ... يمكن أن أفتح الباب بركلة من قدمى .. »

كنت أحاول فتح الباب ، أما هو فقد طلب الإذن باستعمال العنف . هنا أقر أننى أعجبت جدًّا برباطة جأشه ومرحه وسط هذه الظروف . وقد هنأت نفسى على أن معى رفيقًا يمكن الثقة به فى مواقف كهذه . إلا أن جهوده لم تنجح ...

شعرت كأن الغرفة تمتلئ ببطء بروح شريرة كريهة .. وفجأة انفتح الباب تلقائيًا ببطء شديد ، فاندفعنا للخارج . رأينا بقعة ضوء بشكل وحجم البشر تتحرك .. هرعنا نلحق بها.. فإذا بها تتجه إلى غرفة نوم صغيرة يبدو أنها كانت مخصصة للخدم . رأيت الضوء ينكمش إلى حجم كرة صغيرة رائعة الجمال ثم يتلاشى . هناك على الفراش وجدنا منديلاً .. كان مكسوًا بالغبار فلربما كان يخص العجوز التى ماتت هنا . شعرت برغبة فى فتح الأدراج .. فتحت أحدها فوجدت خطابين مربوطين بشريط اصفر . أمسكت بالخطابين هنا شعرت بشىء ناعم يقبض على معصمى .. ويحاول فى رفق انتزاعهما .. لكنه لم ينجح

عدنا لغرفتى .. لاحظت أن كلبى لم يتبعنا قط ، بل كان يقعى جوار النار ويرتجف . كنت شغوفًا بقراءة الخطابين ، بينما راح خادمى يخرج الأسلحة التى جئنا بها ويضعها على منضدة جوار الفراش .

كان تاريخ الخطابات يعود لخمسة وثلاثين عامًا .. خطابات من عاشق لحبيبته مع لمسة تدل على أن من يكتب الخطابات كان بحارًا أو يعمل بالبحر . ومن الواضح أنه لم يتعلم جيدًا جدًا . هناك عبارات توحى بسر معين .. سر لا علاقة له بالحب بل بالجريمة . مثل « لا تدعى أحدًا يوجد فى غرفتك ليلاً .. لربما كنت تتكلمين فى نومك » و« ما حدث قد حدث .. ولن يعرف أحد الحقيقة ما لم يتكلم الموتى .. »

فى الخطاب الأخير هناك تعليق بخط أنثوى يقول :

« فقد فى البحر يوم 4 يونيو .. نفس اليوم الذى .... »

وضعت الخطابين جانبًا ورحت أفكر . زدت من اشتعال النار وفتحت الكتاب الذى احضرته معى ورحت أطالع حتى الحادية عشرة والنصف . سمحت للخادم بأن يذهب لحجرته لكن بشرط

ألا ينام وأن يبقى الباب مفتوحًا بين الغرفتين . اشعلت شمعتين على جانبى الفراش وواصلت القراءة .

بعد عشرين دقيقة شعرت بهواء بارد يضرب وجهى .. استدرت لأرى لهب شمعة يهتز فى جنون . ورأيت ساعتى التى وضعتها جوار المسدس تنزلق ببطء .. وفجأة اختفت . أمسكت بالمسدس فى يد والخنجر فى يد ونهضت ، لأننى لم أرغب فى أن تلحق اسلحتى بساعتى .

نهض الكلب منتصبًا وتراجعت أذناه للخلف وراح يصغى . راح ينظر لى فى ثبات بنظرة غريبة ، وشعره منتصب . هنا اقتحم الخادم الغرفة وقد قلص الرعب وجهه حتى إننى لو رأيته فى الشارع لما عرفته . وهمس وهو يركض :

ـ « اجر !.. اجر !.. إنه من خلفى ! »

واندفع للباب ففتحه وخرج .. هرعت خلفه فسمعته يثب فوق الدرجات .. ثم انفتح باب الشارع . لقد صرت وحدى فى البيت المسكون !

وقفت للحظات لا أعرف إن كان على أن أتبعه أم لا ، ثم تغلبت الكبرياء لتعيدنى .. دخلت للغرفة التى كان فيها فلم أر

شيئًا يبرر هلعه.لا توجد أبواب أو فتحات .. إذن كيف استطاع هذا الشىء الذى أفزعه أن يدخل ما لم يكن عن طريق حجرتى ؟

عدت للغرفة فوجدت أن الكلب حشر نفسه فى إحدى زوايا الحجرة كأنه يحاول حرفيًا اختراق الجدار . دنوت من الحيوان وتكلمت معه . كان من الواضح أن الرعب تملكه .. كان يكشر عن أنيابه واللعاب يسيل من فمه . فقط لو رأيت فى حديقة الحيوان أرنبًا تجمد من الرعب أمام ثعبان يمكنك فهم المنظر . حاولت تهدئة الحيوان ، وإن حرصت على ألا أتعرض لعضة منه وهى أمر وارد فى هذه الظروف ، وعدت أطالع كتابى .

كنت قد رأيت الكثير من التجارب الغريبة فى كل مكان بالعالم ، وقد كونت نظريتى الخاصة أن (الخارق للطبيعة) ليس سوى ظاهرة طبيعية لم نعرفها من قبل .. لو ظهر شبح أمامى فلن أقول : الخارق للطبيعة ممكن .. لكن سأقول : إذن فظهور الأشباح ممكن حسب قوانين الطبيعة ، على عكس ما يعتقد العلماء . وفى كل الظواهر الخارقة مثل تحريك الأثاث واستحضار الأرواح فإن العنصر البشرى يظل موجودًا ليستقبل ويرى .. ولهذا فإننى أعتقد أن ما رأيته فى هذا البيت حتى

اللحظة يتم عبر وسيط بشرى فان مثلى . مهما رأيت فلسوف يكون هذا عبر وسيط منح القدرة على أن يقدم لنا هذه الأشياء .

كنت هادئ الجنان أتصرف بنفس العقلانية التى ينتظر بها أحد العلماء نتيجة تفاعل كيماوى . كنت أقرأ عندما شعرت كأن شيئًا يتدخل بين الصفحات ومصدر الضوء .. نظرت لأعلى فرأيت الشىء الذى ربما أجد من المستحيل أن اصفه . الظلام يتشكل فى صورة ليست بشرية تمامًا بل هى أقرب لظل غير واضح فى الهواء . ظل هائل الحجم يوشك على أن يلمس السقف ..

خيل لى أننى أرى عينين تنظران لى من أعلى . كانتا تظهران ثم تختفيان .

حاولت النهوض لكننى لم أقدر بسبب ثقل غير عادى جثم على . هناك إرادة أقوى منى تمنعنى .. إرادة لها ذات تصميم العواصف والبراكين .

فى النهاية تملكنى الرعب .. رعب يفوق الكلمات . لكنى قلت لنفسى :

ـ « هذا رعب .. رعب وليس خوفًا .. الخطر هو أن أشعر بالخوف .. هذا وهم .. »

مددت يدى لسلاحى هنا سقطت يدى جوارى وبدأ ضوء الشمعة يخبو . كان الضوء يتلاشى من المدفأة .. وبدأ الظلام يسود . هرعت للنافذة وفتحت المصراع .. كان أول ما فكرت فيه هو : ضوء ..

رأيت القمر صافيًا هادئًا .. شعرت بسرور ..

عدت للغرفة فوجدت أن الشىء المظلم قد توارى . نظرت للمنضدة المصنوعة من خشب الماهوجنى ، هنـــا رأيت يدًا تبرز . يدًا من لحم ودم مثل يدى لكنها لشخص مسن .. امرأة على وجه الدقة . وفجأة اختفى الخطابان من على المنضدة . وسمعت ثلاث دقات عند رأس الفراش ..

تحرك مقعد عند طرف الغرفة وبدأ شىء يتشكل فوقه .. شىء له مظهر امرأة .. امرأة شابة لها جمال جنائزى غريب . وقد التفّت بثوب من الضباب الأبيض.. لم تكن عيناها تنظران لى بل إلى الباب.. كأنها تصغى .. تنتظر ..

ومن الباب ـــ برغم أنه لم ينفتح ـــ ظهر شكل آخر مخيف .. شكل شاب يلبس ثياب القرن الماضي.. أو ما يبدو كذلك لأنه كان طيفيًا .. وكان للشبحين ذات الملامح الميتة الشاحبة .

دنا الذكر من الأنثى مع ظل أسود غريب ينحدر من الجدار . خيل لى أننى أرى بقعـــة دم على صـــدر الأنثى . ورأيت شبح الرجل ينحنى على السيف بينما الظل فى الوسط يلتهمهما معًا . وسرعان ما تواريا .

انفتح باب الخزانة عن يمين المدفأة وظهرت امرأة مسنة .. فى يديها خطابان .. نفس الخطابين اللذين رأيت اليد تأخذهما . فتحت الخطابين كأنها تقرأ .. ومن خلفها ظهر وجه محتقن .. وجه رجل غرق منذ زمن .. منتفخ وقد اختلط عشب البحر بشعره .. جواره كان طفل .. طفل تعس سيء التغذية ..

نظرت لوجه العجوز فبدا كأن التجاعيد تزول وصار وجه شابة حادة النظرات . ومن جديد عادت الظلال .. ثم من الظلال بدأت فقاقيع تخرج .. تنفجر ومنها تخرج أشياء عملاقة مسوخية .. اشياء لا يمكن أن اصفها للقارئ إلا كهذه الأشياء المرعبة التى تراها فى قطرة الماء تحت عدسة المجهر .

كنت أشعر بأن شيئًا يلمسنى لكن ليس تلك الأشياء .. أنامل باردة غير مرئية تحاول الإمساك بمعصمى .. وشعرت بشكل ما أننى لو أبديت ذعرًا لكانت نهايتى لذا تماسكت .. كانت معركة إرادات . كانت من حولى إرادة .. إرادة قوية شريرة خلاقة ..

كانت الأشكال تتوهج كأنها تحترق .. ثم دوت دقات ثلاث .. هنا توارى كل شىء .. من الظلمة جاءت وإلى الظلمة عادت..

ومن جديد توهجت الشمعتان على المنضدة وعادت الغرفة هادئة كما كانت .

كان البابان مغلقين كما هما .. والكلب كان ما زال فى الركن .. ناديته فلم يرد . عيناه جاحظتان . أدركت أنه ميت .. حملته بين ذراعى قرب النار وشعرت بحزن بالغ لخسارتى . خطر لى أنه مات من الرعب ، لكن دهشتى كانت بالغة عندما وجدت أن عنقه مهشمة . هل حدث هذا فى الظلام ؟.. ألم تفعل هذا يد لا تقل بشرية عن يدى ؟ لا استطيع إلا ذكر ما رأيت وللقارئ أن يستنتج ما يشاء .

أما ساعتى فقد عادت لمكانها ، وفيما بعد مهما حاول أبرع صناع الساعات أن يصلحوها فإنها كانت تعمل لساعة ثم تتوقف .. لقد صارت بلا قيمة .

لم يطرأ شىء بقية الليل . وقد خطر لى أن أزور الغرفة الصغيرة التى سجنت فيها وخادمى ، لأنه خطر لى أن تكون هى الغرفة التى بدأ منها كل شىء .. وبرغم أننى دخلتها فى ضوء الشمس

عبر النافذة ، فإننى شعرت بنفس رعب البارحة ، حتى لم أجسر على البقاء فترة أطول .

نزلت فى الدرج وفتحت باب الشارع وأطلقت ضحكة خافتة .

عدت لبيتى متوقعًا أن أجد خادمى هناك ، لكنى لم أجده .. ولم أسمع عنه شيئًا لمدة ثلاثة أيام عندما تلقيت رسالة منه من ليفربول يقول :

ـ « سيدى المحترم : أطلب صفحك برغم أننى لا أستحقه . ما لم تكن قد رأيت ما رأيته .. أحتاج لأعوام كى أستعيد لياقتى وأصلح للخدمة ثانية . سأذهب لأخى زوجتى فى ملبورن لأقيم عنده والسفينة تتحرك غدًا . لا أفعل شيئًا سوى الرجفة إذ أتخيل الشىء خلفى . فقط أطلب يا سيدى أن ترسل متاعى وأجرى لوالدتى .. جون يعرف العنوان .. »

كان مـن الواضح أن الرجل ينوى الذهاب لأستراليا . فى المساء عدت للبيت وفى نيتى أن أجلب الأشياء التى تركتها هناك . لم يحدث شىء . وقد عدت للمستر (ج) فى مكتبه لأعيد له المفاتيح وأخبرته أننى رويت فضولى وكدت أحكى له ما رأيته ، لكنه استوقفنى وقال فى أدب إنه لم يعد يبالى بهذا اللغز .

هنا سألته عن الخطابين اللذين وجدتهما وعما إذا كان لهما علاقة بالعجوز التى عاشت فى البيت لفترة . بدا مندهشًا ثم قال إنه لا يعرف الكثير عن المرأة . لكنه سيجرى بعض التحريات . إن هناك نظرية تقضى بأن ضحية الجريمة أو منفذها يزور كروح قلقة مكان الجريمة .. لكن الأرواح تغزو هذا البيت من قبل أن تقيم فيه المرأة .

قلت له :

– « ما زلت أؤمن بوجود عنصر بشرى فى هذا كله .. لو كان التنويم المغناطيسى قادرًا على نقل أفكار لك ، فلماذا لا يكون هناك شخص هو الذى ينقل هذه الرؤى ؟ »

قال فى دهشة :

– « لو افترضنا هذا بالنسبة للخيال ، فماذا عن حركة أجسام مادية كالمقاعد والأبواب ؟ »

– « هناك قوة أكبر من التنويم المغناطيسى .. القوة التى كانوا فى الماضى يسمونها (السحر) . لن تكون قوة خارقة للطبيعة . بل ستكون قوة ضمن قوى الطبيعة لكنها نادرة جدًا ولا يظفر بها إلا قليلـون . دعنى أوضـح ما أعنيـه مـن تجـربة يصفها

(بارسيلسوس) بأنها غير صعبة ، كما يصفها صاحب كتاب (غرائب الأدب) بأنها ذات مصداقية . عندما تحرق زهرة فإن مكوناتها تتجعد وتتلاشى .. لكن بوسعك بالكيمياء أن تسترجع المكونات من الرماد . هذا ينطبق على الروح .. هذا الشبح الذى يظهر ليس هو روح المتوفى ، بل هو صورة للشكل الميت . هذه الأشباح عندما تظهر لا تتكلم وإذا تكلمت لا تقول شيئًا مهمًا . أنا مصمم على أن ما رأيته انتقل لعقلى من عقل آخر .. هناك أعجوبة جديدة اسمها الكهرباء .. باختصار أنا أفكر فى أن ما رأيناه ليس سوى أحلام غير مكتملة لعقل هائل القدرة .. مرعب فى قدرته على التدمير . لقد قتلت الكلب ولربما قتلتنى أنا أيضًا .. لا غرابة فى أنه لا يمكن إقناع حيوان بالبقاء هناك .. حتى الفئران والصراصير . هل تفهم نظريتى ؟ »

– « نوعًا .. وإننى لأقبل أية نظرية خيالية أكثر من قبولى لفكرة الأشباح .. »

قلت له :

– « على كل حال أنا أشك فى تلك الغرفة الصغيرة عند المدخل ، وأقترح عليك أن تهدم الجدران وتنزع الأرضية .. »

لاحظت أنها منفصلة عن البيت ويمكن تدميرها دون أن تؤذى البيت .. سوف أدفع لك نصف التكاليف لو فعلت .. »

ـ « لا .. لا داعى سأدفع كل شىء .. »

بعد عشرة أيام جاء خطاب من مستر (ج) يقول إنه زار البيت ، ووجد الخطابين اللذين كانا معى فى درج . وقد أجرى بحثًا عن المرأة التى يبدو أن الخطابات موجهة لها ، وبدا أنه منذ 36 عامًا تزوجت برغم إرادة أهلها .. تزوجت من رجل أمريكى مريب . هى كانت ابنة تاجر محترم جدًا ولها أخ أرمل لديه طفل فى السادسة ، وكان ثريًا جدًا .. بعد شهر من الزواج وجدوا جثة هذا الأخ فى نهر (التيمز) وهناك علامات عنف على حلقه . تولى الأمريكى وزوجته رعاية الطفل .. لو مات الطفل ترث الأخت الثروة . مات الطفل بعد ستة اشهر فعلاً وقال الجيران إنهم سمعوه يصرخ ليلاً.. الأطباء الذين فحصوه وجدوا جسدًا سيئ التغذية مليئًا بالكدمات . هكذا ورثت العمة كل شىء ، وبعد عام من الزواج غادر الأمريكى إنجلترا ولم يعد قط . أما الزوجة فظلت وحدها تواجه مصائب إفلاس المصرف وإفلاس عدة مشاريع .. ابتاعت متجرًا صغيرًا وراحت تنحدر اجتماعيًا

حتى صارت خادمة .. وسرعان ما استأجرها مستر (ج) للعناية بالبيت الذى سكنت فيه فى عام زواجها الأول .

أضاف مستر (ج) أنه استأجر عمالاً لهدم الغرفة ، وهو ينتظر أن أعطيه يومًا مناسبًا .

تم الهدم فعلاً .. وتحت الأرضية وجدنا بابًا صغيرًا يسمح بنزول رجل لأسفل .. نزلنا لأسفل إلى غرفة لم يعرف أحد بوجودها قط .. كانت هناك نافذة مغلقة بالقرميد . كانت هناك مقاعد ومنضدة كلها تنتمى لموضة تعود لثمانين عامًا .

خزانة ثياب بها ثياب أنيقة عتيقة الطراز .. وهناك خزانة حديدية مثبتة للجدار وعليها قفل كلفنا الكثير من الجهد لنهشمه . كانت هناك أدراج .. وعلى الأرفف كانت زجاجات من الكريستال بها مواد طيارة لا لون لها . كان هناك أنبوب زجاجى غريب الشكل وفى أحد الأدراج كانت صورة مؤطرة بالذهب ألوانها ما زالت نضرة .. كانت تصور رجلاً فى السابعة والأربعين غالبًا .

كان وجهه شديد التأثير .. تخيل ثعبانًا عملاقًا صار رجلاً .. يمكنك عندها أن تتخيل منظر هذا . عينان مخيفتان خضراوان

وفك مربعة تدل على قوة غير عادية يعرف صاحبها أنه يملكها . أدرت الصورة تلقائيًا لأرى المكتوب .. على ظهر الصورة كانت نجمة خماسية فى مركزها سلم والدرجة الثالثة منه تقول 1765 . وجدت زنبركًا فضغطت عليه هنا انفتح ظهر اللوحة وقرأت الكلمات :

« ماريانا ... كونى مخلصة فى حياتك وموتك لـ ... »

هنا جاء اسم لن أذكره . لكنى سمعته فى طفولتى لأنه اسم نصاب اشتهر بعروضه فى لندن ثم فر منها بسبب جريمة قتل مزدوجة حدثت فى بيته..قتل حبيبته ومنافسه .

أما مستر (ج) فقد انتزع الدرج الثانى بصعوبة بالغة .. وجدنا جهازًا فى حالة ممتازة ، وكان هناك طبق يستقر على كتاب .. الطبق مليء بسائل رائق تطفو فوقه بوصلة ، لكن بدلًا من نقاط البوصلة كانت هناك سبعة حروف غريبة ومن الدرج كانت رائحة غريبة لكنها ليست كريهة . رائحة تؤثر فى الأعصاب بشدة .. شعرنا بتنميل شديد حتى جذور الشعر .

نزعت الطبق هنا راحت الإبرة تدور حول نفسها ، وأصابتنى صدمة جعلتنى ألقى بالطبـق . انسكب السائل .. هنا راحت

الجدران تهتز كأن يدًا عملاقة تهزها . أصاب الذعر العمال حتى أنهم عادوا للسلم الذى نزلنا منه لكن لم يحدث شىء أكثر .

كان الكتاب مجوفًا يحوى رقاقة من المخمل عليها نجمة خماسية مزدوجة . وكتابة بلاتينية عتيقة يمكن ترجمتها كذا :

ـ « إلى كل من يبلغ هذه الجدران حيًا أو ميتًا .. سوف تتحرك الإبرة بإرادتى . ملعون هذا البيت ، ومذعورون هم كل من سيقيمون فيه .. »

لم يكن هناك شىء آخر ..

أحرق مستر (ج) المخمل واللعنة المكتوبة عليه .. ثم قام بتجريف الغرفة وجدرانها . ولمدة شهر تجرأ على سكنى البيت وحده . لم يعد فى لندن بيت أكثر هدوءًا .. فى النهاية عرضه للإيجار فلم يتلق أية شكوى من السكان .

شبح مسز فيل

بقلم دانييل ديفو



دانييل ديفوى.. نموذج للمؤلف الذى ابتكر شخصية غطت تمامًا على اسمه .. إنه مؤلف الشخصية فائقة الشهرة (روبنسون كروزو) ، التي استوحاها من حكايات بحار يدعى (سلكيرك) . ديفو كاتب وصحفى بريطانى شهير ، ولد عام 1659 وصار مؤسسًا لمفهوم الرواية البريطانية . هنا يحكى لنا بأسلوبه العتيق قصة اشباح طريفة .

مقدمة

هذه القصة حقيقية وقد قمت بعرضها بطريقة تدفع أى رجل عاقل لتصديقها . أرسلها لى سيد يعمل فى القانون من (ميدستون) بكنت ، وهو شخص ذكى جدًا . وتشهد على صحة الأحداث سيدة رصينة متفهمة هى قريبة هذا السيد ، وتعيش فى كانتربيرى على بعد خطوات من البيت الذى تعيش فيه السيدة (بارجريف) . وهى تؤمن أنه لا حاجة بالرجل إلى تلفيق هذه الأحداث أو الكذب فيما يتعلق بها .

ما نستخلصه من هذه القصة هو أن هناك حياة تلى حياتنا هذه ، وهناك إله رحيم سوف يحاسب كل واحد على ما قام به فى حياته ، وأن وقتنا على هذه الأرض قصير ، وعلينا أن نعود لله نادمين تائبين قبل فوات الأوان ..

هـذه القصص نادرة جدًا ، ولم تسعفنى قراءاتى وخبراتى بنموذج مماثل لها .

كانت مسز (بارجريف) هى الشخص الذى ظهرت له مسز فيل بعد موتها . وهى شخص محترم وصديقة مخلصة ويمكن أن

أثق بكلامها . برغم أن بعض الناس ممن هم اصدقاء لأخى مسز فيل اعتبروا هذا الظهور خيالاً ، وفعلوا ما بوسعهم حتى يسخروا من مسز بارجريف ويسفهوا كلامها . لكنى لا أجد فى المسز بارجريف ما يثير شكوكى فى صحة قصتها ، برغم قسوة زوجها الشرير وبربريته ، فإن هذا لم يؤثر على سلامة عقلها .

كانت مسز فيل سيدة غير متزوجة فى الثلاثين من عمرها ، ومنذ بضعة أعوام كانت تنتابها نوبات مرضية شرسة . كان لها أخ وحيد يعولها ، وكانت تعنى ببيته فى (دوفر) . كانت امرأة شديدة التدين تعرف مسز (بارجريف) من طفولتها . كانت ظروفها صعبة بسبب أبيها القاسى ، وكانت تقول لمسز (بارجريف) : أنت لست أفضل صديق بل أنت الصديق الوحيد لى فى العالم . وما من شىء سوف يقضى على صداقتنا..

كانتا تعزيان بعضهما وتقرءان بعض الكتب القيمة . عندما حصل مستر (فيل) على عمل فى الجمارك فى دوفر ، بدأت العلاقة تقل بين الصديقتين ، وإن لم تتشاجرا قط . إن الفتور يأتى على مراحل .. وقد بدأ يتزايد لدرجة أن مسز بارجريف لم تر صاحبتها لمدة عامين .

فى الثامن من سبتمبر عام 1705 فى منزلها فى كانتربيرى ، كانت مسز (بارجريف) جالسة وحدها تفكر فى حياتها التعسة ثم عكفت على أشغال الإبرة .. هنا سمعت دقات على الباب . اتجهت لترى من هنالك فكان مسز (فيل) صديقتها القديمة . هنا دقت الساعة الثانية عشرة ظهرًا ..

شعرت بدهشة لرؤية صديقتها بعد كل هذا الوقت ، لكنها كانت سعيدة لرؤيتها . وقبلتها حتى كادت شفتاهما تتلاصقان.. هنا وضعت مسز فيل يدها أمام عينها وقالت إنها ليست على ما يرام .. قالت إنها ذاهبة فى رحلة وقد أرادت أن ترى صاحبتها أولاً .

سألتها مسز بارجريف كيف قامت بهذه الرحلة وحدها ؟.. تعرف أن لديها أخًا عطوفًا . قالت مسز فيل إنها تركت مذكرة لأخيها وجاءت وحدها لترى صاحبتها . ثم إنها دخلت إلى حجرة صغيرة وجلست فى مقعد ذى مسندين كانت مسز بارجريف تجلس عليه عندما سمعت الدق .

تقول لها مسز فيل إنها جاءت لتعيد الصداقة القديمة وتجدد ما انقطع منها . وبدأت السيدتان تتذكران ذكرياتهما المشتركة والكتب التى قرأتاها معًا . تكلمتا معًا عن كتاب د . شيرلوك عن الموت وكذا كتاب (درلنكورت) الشهير ..

صعدت مسز بارجريف إلى الطابق العلوى لتجلب الكتاب وتعود به . قالت لها مسز فيل إنه لو كانت عيون إيماننا مفتوحة كعيون أجسادنا ، لرأينا الملائكة التى تحيط بنا وتحرسنا . يجب أن تدرك أن تصورنا للعالم الآخر يختلف تمامًا عن الحقيقة ..

تذكرى يا عزيزتى بارجريف .. دقيقة واحدة من السعادة المستقبلية سوف تعوضك عن كل آلامك . لا أصدق أبدًا أن الله اختار هذه الآلام لترافقك طيلة حياتك.. سوف تفارقك هذه الآلام أو تفارقينها أنت يومًا ما . كانت مسز فيل تتكلم بحرارة وصدق حتى أن مسز بارجريف بدأت تشعر بدموع فى عينيها .

قالت لها مسز فيل إن كلام الناس هذه الأيام يختلف عن كلام المسيحيين الأوائل .. كانوا يتكلمون بطريقة تضيف لإيمان كل منهم .. لم يكونوا مثلى ومثلك لكن عليها أن تفعل مثلهم.. من العسير فى هذا العصر أن تجد صديقًا مخلصًا من قلبه . قالت مسز بارجريف إنها كتبت بعض الأشعار ، فطلبت منها صاحبتها أن تطلعها عليها ..

دامت المحادثة ساعة وثلاثة أرباع وإن لم تستطع مسز بارجريف أن تتذكر كل شىء ، وهذا طبيعى بالنسبة لمحادثة بهذا الطول .

طلبت مسز فيل من صاحبتها أن تكتب خطابًا لأخيها تخبره فيه بأن يعطى مبالغ من المال لفلان وفلان مع مدخراتها التى تحتفظ بها فى صورة ذهب . شعرت مسز بارجريف بأنها ستصاب بنوبة أخرى لذا جلست على مقعد .

طلبت منهـــا مسز فيل أن تحكى كل تفاصيل هذه المحادثة لأخيها . بدا هذا الطلب غريبًا على مسز بارجريف ، وأخبرت صاحبتها أنه من الأسهل أن تفعل ذلك بنفسها ..

قالت مسز فيل إن أسباب هذا ستتضح فيما بعد ، لكنها تطالب مسز بارجريف بأن تعدها بذلك ..

هنا طلبت مسز فيل أن ترى ابنة بارجريف . لم تكن فى البيت .. قالت مسز بارجريف إنها يمكن أن تطلبها لو كانت مصرة على أن تراها .. فطلبت منها مسز فيل أن تفعل ..

ذهبت مسز بارجريف لبيت الجيران لتجلب ابنتها ، فلما عادت وجدت السيدة فيل تقف على باب الخروج الذى يطل على السوق متأهبة للرحيل . سألتها بارجريف عن سبب العجلة للرحيل فقالت تلك إنها لن تبدأ رحلتها قبل يوم الاثنين على كل حال . ووعدتها بأن تراها ثانية فى بيت ابن عمها (واطسون) قبل أن

ترحل . ثم أنها انصرفت .. ومشت أمام صاحبتها إلى أن توارت عند ناصية . كانت الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر .

لقد ماتت السيدة فيل فى السابع من ديسمبر عند الظهر بسبب نوبة عنيفة . وفى اليوم التالى لظهورها ــ وكان يوم أحد - أصيبت مسز بارجريف ببرد شديد والتهاب فى الحلق فلم تستطع الخروج . يوم الاثنين أرسلت لكابتن واطسن تسأله عما إذا كانت مسز فيل عنده .. اندهشوا لهذا السؤال وردوا بأنها غير موجودة ولا ينتظرون قدومها . اندهشت مسز بارجريف لهذا ووضعت عباءتها وهرعت لدار الكابتن واطسن لتتأكد من أن صديقتها ليست هناك حقًا . اندهشوا بدورهم وقالوا إن مسز فيل لم تكن فى المدينة قط ، ولو كانت فيها لزارت دارهم .

هنا دخل المكان كابتن واطسون وأكد أن السيدة فيل ميتة ..

لم تصدق السيدة وحكت كل شىء للكابتن ، ووصفت ثياب صديقتها وما قالته لها وكيف أخبرتها أن ثيابها معالجة بطريقة تغير لونها . هنا صاح كابتن واطسون إنها رأتها بالتأكيد .. ما من أحد سواه ومسز فيل يعرف أن الثوب قد تم تغيير لونه . وتذكرت مسز واطسون الثوب وشكله ..

سرعان ما اصطحب الكابتن واطسون سيدين إلى منزل مسز بارجريف ليسمعا القصة بلسانها . وسرعان ما انقض عليها كل من له علاقة بالكنيسة أو الفلسفة أو القانون.. كان كلامها معقولاً وأدرك كل من كلمها أنها ليست فريسة التهيئوات ..

نسيت أن أخبرك أن مسز فيل أخبرت مسز بارجريف أن اختها وزوج أختها جاءا من لندن ليرياها . لقد وصل الاثنان إلى دنفر فى ذات اللحظة التى كانت تحتضر فيها ..

كانت مسز بارجريف تتذكر أشياء جديدة طيلة الوقت الذى جلست فيه معها ، وقد جلست معها عدة ساعات . من ضمن ما تذكرته أن مستر بريتون العجوز كان يسمح لمسز فيل بعشرة جنيهات كل عام . كان هذا سرًا لم تعرفه مسز بارجريف إلا الآن .

لم تكن فى القصة ثغرات .. مثلاً هناك خادم فى بيت مجاور سمع مسز بارجريف تتكلم فى الوقت الذى قالت إن مسز فيل كانت عندها . وبرغم المشاكل والمتاعب التى لاقتها مسز بارجريف بعد هذه القصة ، فإنها لم تكن ترغب فى مليم من الناس مقابل هذه القصة ، وكذا لم ترد أن تأخذ ابنتها أى شىء.. لهذا لم تهتم قط بسرد حكايتها .

قال مستر فيل إنه سيقابل مسز بارجريف لفهم الأمور ، لكن ما حدث هو أنه ظل فى بيت كابتن واطسن منذ وفاة أخته ، وهكذا لم يلق مسز بارجريف قط . بعض أصدقائه زعموا أن مسز بارجريف كذابة . لكن من قالوا هذا كانوا معروفين بأنهم كذابون .

لم يقل مستر فيل قط إن مسز بارجريف كذابة ، لكنه قال إن زوجها الشرير أفقدها عقلها . برغم هذا اعترف أن أخته كان لديها كيس مليء بالذهب .. وجده فى صندوق أمشاط وليس فى غرفتها ، وقد بدا هذا غريبًا لأن السيدة كانت تخاف على مدخراتها جدًا ولم تكن لتخرجها من الغرفة أبدًا .

لكن كلما أعدنا التفكير فى الأمر بدا من المستحيل على مسز بارجريف أن تعد قصة كهذه بين الجمعة والسبت وبمجرد ما سمعت خبر الوفاة . تفعل هذا دون أن تكسب شيئًا من ورائه ، فلابد أنها أذكى وأكثر شرًا من أى شخص .

وقد سألت مسز بارجريف إن كانت قد أحست بالثوب ، فقالت فى تواضع إنه لو كانت حواسها سليمة فقد شعرت به . قالت إنها شعرت أن الشبح كان يتكون من أنسجة مادية ملموسة ..

لم تكن تريد الاستفادة من هذه القصة إلا بطريقتها الخاصة ، برغم أنه صارت فى بيتها غرفة كاملة مليئة بالسادة الذين جاءوا من بعيد ليسمعوا القصة منها ..

إن أصل هذه القصة الغريبة يبدو لى كما يلى :

جازف بائع كتب وطبع نسخًا كثيرة من كتاب المحترم (تشارلز دلرنكورت) من الكنيسة الكالفينية فى باريس . وقد حمل الكتاب عنوان (دفاع الكنيسة ضد الخوف من الموت ، مع تعليمات تخبرنا كيف نتهيأ للموت) .

لكن الموت برغم أنه مؤكد ليس جذابًا للقراء . ولهذا ظل الكتاب كومة مهملة لدى البائع الذى طبعه . اتصل بالمدعو (ديفو) ليساعده وينقذ الكتاب من الموت . خطرت لديفو فكرة عبقرية لترويج الكتاب . وهكذا يمكنك بسهولة أن تقرأ كلماته الموحية بالثقة : « . أرسلها لى سيد يعمل فى القانون من (ميدستون) بكنت ، وهو شخص ذكى جدًا . وتشهد على صحة الأحداث سيدة رصينة متفهمة هى قريبة هذا السيد ، وتعيش فى كانتربيرى على بعد خطوات من البيت الذى تعيش فيه السيدة (بارجريف) . »

مشكلتنا فى زمننا الحالى أننا نشك ونتحقق .. بينما كان أجدادنا يتساءلون ويصدقون . وكان مستر فيل مهذبًا وراقيًا فلم يستطع قط أن يتهم مسز بارجريف بأنها لفقت القصة . وكما قلنا افترض أنها قالت ما رأته لكنه غير موثوق به فقد أودى زوجها الشرير بعقلها .

لقد كانت مسز فيل وصاحبتها صديقتين منذ الطفولة وقد أرادتا أن تبقيا معًا طالما هما حيتان . لكن حصول أخى مسز فيل على مكتب فى دنفر قلل من علاقة المرأتين . عاشت مسز بارجريف فى كانتربرى . فوجئت بزيارة صديقتها مسز فيل وهى جالسة تفكر فى تعاستها . قالت صديقتها إنها ذاهبة فى رحلة طويلة . كانت مسز فيل تتكلم بطريقة تذكر القارئ بكلام عاشق شبحى فى (البالاد) الأسكتلندية القديمة : « لماذا آتى إلى غرفتك ؟.. أنا لم أعد رجلاً أرضيًا .. ولماذا ألثم شفتيك الورديتين بينما أيامك لن تطول ؟ »

راحت السيدتان تتكلمان بتلك الطريقة المنزلية الأليفة التى تميز النساء فى منتصف العمر . وقد ذكرت مسز فيل كتاب درلنكورت الذى يتحدث عن الموت .. كما تحدثتا عن كتاب

(أستيك) للدكتور (كينريك) وقصيدة مستر نزريس عن الصداقة . يبدو أن الكلام دار بين السيدتين عن الثياب فقالت مسز فيل إن ثوبها من الحرير الذى أزيل لونه . انتهت المحادثة فغادرت مسز فيل المكان . ثم جاءت أخبار أنها توفيت قبل هذا بيوم .. وبدأت الأدلة تتراكم والأمور التى تكلمت عنها ولا يمكن أن يعرفها سواها .

هذه قصة غريبة لكن طريقة سردها وتدفق الأحداث تجعلك واثقًا من أنها لو حدثت فلابد أنها وقعت بهذه الكيفية . ثم أن هناك نقاطًا تافهة كثيرة فى الحوار ، تجعلك تستبعد أن يقوم أحد بتأليفها .

كانت النتيجة مذهلة ، وسرعان ما راج كتاب (درلنكورت) عن الموت فى كل مكان .. وبعد ما كانت نسخه مهملة فى متجر الكتب ، صارت الطبعات لا تنتهى ..

باختصار .. لقد تحقق الغرض الحقيقى من ظهور مسز فيل .



المرأة الصامتة

بقلم ليوبولد كومبرت



كاتب مجري ولد عام 1822 ، وقد درس فى فيينا ؛ وبما أنه يهودى فقد أظهر نشاطًا واضحًا في نشر الثقافة اليهودية . وكان أبا ما يطلق عليه (أدب الجيتو) . هذه قصة يهودية جدًا مليئة بالحاخامات والمعابد ، وهذا قد يغرينا بقرأءتها على سبيل الفضول . القصة ممتعة وإن كانت خالية من الأشباح فلا أعرف لماذا وضعوها ضمن هذه المجموعة ؟

فى الليل دوت ضوضاء حفل زفاف يأتى من بيت متألق الإضاءة فى الشارع الضيق . كانت تلك من الليالى التى يدفئها الربيع لكنها حالكة السواد .

ما أشد سعادتهم هناك هؤلاء القوم فى الزمن القديم !.. كانت لديهم مشاكلهم مثلنا .. وعندما كانت الصعاب تواجههم لم تكن تأتى رقيقة ناعمة ، وإنما تهوى عليهم بمجمع قبضتها . لكنهم برغم هذا كانوا ينعمون بوقتهم حقًا .. وهذا يفسر هذه الضوضاء العالية القادمة من هذا البيت .

قال الأب الثرى (روبين كلاتنر) لنفسه :

ـ « لو كنت أعرف أن هذا سيكلفنى آخر قطعة ذهبية فى جيبى ، لأفلتُ من الموضوع .. »

بالفعل بدا أن آخر قطعة ذهب قد طارت ، وبدلاً منها جاءت أطباق عليها الإوز والمعجنات . منذ الثانية بعد الظهر وحتى منتصف الليل ، ظل الخدم يركضون بالأطباق .. بدا كأن بركة مضاعفة حلت بالطعام لأنه لم يكن ينقص أبدًا

كان هناك رجل صغير الحجم لا تبدو عليه معالم الأهمية لكن بدا أن وجوده يفتح شهية الموجودين . إنه مهرج يقدم عرض (ليب نار) الذى اشتهرت به (براج) .

فى إحدى الغرف احتشد الشباب للرقص . كان الصخب شديدًا لدرجة أن الشموع على الموائد كانت ترتجف رعبًا . بين الشباب ترى العروس فى ثوبها الحريرى السميك ومقدمة قلنسوتها الذهبية تخفى وجهها . كانت ترقص بلا توقف .. لو أن أحدًا رآها للاحظ عصبيتها وسرعتها .. لم تكن تنظـر لأحد حتى العريس نفسه ..

لم يسـأل أحـد نفسه ولم يلحظ لماذا كانت يدها تحرق ؟ ولا لماذا كانت أنفاسها حارة بهذا الشكل ...؟

دخلت بعض النسوة القاعة فتعالت الموسيقا لتصم الآذان ، وفجأة توارت العروس الجديدة خلف النساء . ظل العريس واقفًا عند العتبة بابتسامته البلهاء .. ثم بعد لحظات اختفى بدوره ولا يعرف أحد كيف.

هذه الإشارات البسيطة يفهمها الناس على الفور .. معناها طبعًا هو أن موعد الرحيل قد جاء . صارت الموسيقا ناعسة قبل

أن تتوقف فجأة .. وبدأت ضحكات وعبارات ثملة تتردد وهنا وهناك . تجد رجلاً يترنح فيستند إلى مقعد .

كان الجميع يتجهون للباب . هنا سمعوا صرخات ألم من المدخل . على الفور بدأ الحشد يتراجع إلى داخل القاعة .. كانت صرخات ألم شنيعة لدرجة أنه حتى الأكثر ثملاً عادوا لوعيهم .

ـ « بالله ماذا حدث ؟.. هل البيت يحترق ؟ »

صرخت امرأة من أسفل :

ـ « لقد ذهبت !.. ذهبت ! »

تساءل ضيوف الزفاف :

ـ « من هى ؟ »

اقتحمت المكان (سيلدى كلاتنر) أم العروس شاحبة كالموت . وفى يدها شمعة :

رأت الكثيرين حولها فبدا أنها تفيق نوعًا .. نظرت حولها كأنما غلبها الخجل وقالت :

ــ « لا شىء .. لا شىء أيها السادة الطيبون .. ماذا يمكن أن يكون حدث ؟ »

لكن كان التستر واضحًا فلا يمكن أن يخدعهم .

ــ « إذن لماذا تصرخين ما دام لم يحدث شىء ؟ »

قالت وهى تئن :

ــ « نعم رحلتْ .. ولابد أنها آذت نفسها .. »

الآن بدأ الأمر يتضح . لقد اختفت العروس من مأدبة الزواج . نزل العريس ليبحث عنها لكنه لم يجدها . فكر فى أنها مزحة لكنه بدأ يشعر بتوجس غامض .. نادى أمها وقال :

ــ « الويل لى .. لقد رحلت .. »

كان الناس الآن يتكلمون عن الأرواح الشريرة التى تحب أن تفسد ليالى الزفاف .. تفسير سخيف لكن الكثيرين صدقوه . شعرت أمهات كثيرات بتوتر ونادين بناتهن .. الرجال قرروا البحث عن العروس وطلبوا حبالاً ومشاعل ..

وقف روبين كلاتنر فى القاعة التى صارت خالية ولم يتبادل كلمة مع أحد . لقد قهرته المرارة وقهره الخوف .

ممن وقفوا مع سيلدى فى القاعة كان (ليب نار) المهرج القادم من براج .. دنا من الأم التعسة وسألها :

ــ « قولى لى يا سيدتى .. ألم تكن تريده ؟ »

ــ « من ؟ »

ــ « العريس .. أعنى .. ربما أرغمتم الفتاة على الزواج منه »

ــ « أرغمناها ؟.. »

ــ « إذن سيكون لا داعى للبحث عنها .. من الخير أن نتركها حيث هى .. »

وانصرف بلا كلمة أخرى .

قرب المعبد كان هناك بيت حاخام بنى فى زاوية شارع ضيق جدًا . حتى فى ضوء النهار كان شديد الكآبة . وكان الناس يعتقدون أن أصـــوات الموتى تسمع ليلاً وهم يتلقون لفافات القانون .

عبر الشارع ركضت فتاة خجول .. نظرت خلفها لترى إن كان هناك من يتبعها لكن كان السكون كاملاً . جاء ضوء من إحدى نوافذ المعبد من المصباح الدائم المعلق عند المحراب .

أمسكت بمقبض الباب الحديدى ودقت وإن كان دق قلبها أعلى . سمعت خطوات قادمة .

لم يكن الحاخام قد جاء لهذا البيت منذ وقت بعيد . كان غير متزوج وفى مقتبل العمر . ولم يكن أحد يعرفه بعد الحاخام القديم الذى كان فى الثمانين من عمره . وكانت معه أمه المسنة التى لعبت له دورى الزوجة والابنة معًا .

ــ « من هناك ؟ »

ــ « : أنا .. »

ــ « ارفعى الصوت لو أردت أن أسمعك .. »

ــ « ابنة روبين كلاتنر .. »

بدا الاسم غريبًا .. كان يعرف القليلين برغم أنه كان هو الذى أجرى طقوس الزواج منذ قليل .

ــ « وماذا تريدين ؟ »

ــ « افتح الباب أيها الحاخام وإلا لمت حالاً .. »

أزاح المزلاج ، وقبل أن يفهم كانت قد انسابت إلى داخل القاعة .. فهز رأسه وأغلق المزلاج . كانت امرأة تجلس فى المقعد المختار لديه وظهرها له . كان رأسها محنيًا على صدرها .. شعر الحاخام بالرعب .

ــ « من أنت ؟ » :

سألها بصوت عال كأن الصوت العالى سيحميه من هذا الشىء الذى بدا له ككل الأرواح الشريرة معًا.

ــ « ألا تعرفنى ؟.. لقد زوجتنى منذ ساعات "

وقف عاجزًا عن الكلام . إذن هى ليست شبحًا . قال لها متلعثمًا :

ــ « لو كنت أنت هى .. لم جئت هنا ولست حيث تنتمين ؟ »

ــ « ما من مكان أنتمى له أكثر من هنا .. »

أذهلته هذه الكلمات . هل المرأة مجنونة ؟ . قال لها بصوت هادئ :

ــ « مكانك يا ابنتى هو بيت أبويك ثم بيت زوجك .. »

قالت شيئًا لم يفهمه.. لكنه قرر أنه يرى أمامه فتاة تعسة يبدو أن عقلها ليس على ما يرام .

ـ « ما اسمك ؟ »

ـ « اسمى (فايله) .. »

ـ « وماذا تريدين يا (فايله) ؟ »

ـ « أيها الحاخام .. هناك خطيئة عظيمة تجثم على قلبى ولا أعرف ما أفعله"

ـ « وما الخطيئة التى لا يمكننا أن نناقشها فى أى وقت آخر ؟.. هل جئت للاعتراف ؟.. وهل زوجك وأبوك يعرفان عنها أى شىء ؟ »

قالت فجأة مقاطعة :

ـ « ومن زوجى ؟ »

تزاحمت الخواطر فى ذهن الحاخام . سألها فى هدوء قدر الإمكان :

ـ « هل أرغموك على الزواج ربما ؟ »

كانت الإجـابة التى تلقاها هى دمعة مكتومة وصراع داخلى وجسد يرتجف . وبدأت تحكى بصوت هامس غريب لم يسمعه يصدر من بشرى من قبل :

ـ « نعم أيها الحاخام سأحكى برغم أننى أعرف أننى لن أذهب هناك حية .. لا .. لم أرغم على الزواج . لم يجبرنى أبواى على شىء قط .. زوجى ابن رجل غنى ، ومعنى الزواج منه أن أقضى حياتى مغطاة بالذهب .. وهذا هو ما جذبنى له . أرغمت قلبى على الزواج منه . فى أعماقى كنت أكرهه وكلما أحبنى أكثر نفرت منه .. لكن الذهب والفضة كانا يقولان لى : ستكونين أغنى زوجة فى المنطقة .. لم أكن كذابة قط .. لكن منذ الخطبة أشعر أن كذبة عملاقة تطاردنى .. الليلة عندما وقفت تحت القبة ووضع الخاتم فى يدى .. عرفت مدى الكذبة .. وعندما اقتادونى بعيدًا .... »

نظر لها الحاخام فى صمت ..

فقط روح تدرك خطيئتها يمكن أن تتكلم بهذه الطريقة ..

لم يشعر بشفقة نحوها .. بل ما شعر به هو أنه يمر بذات معاناتها . الأمر واضح .. وهو يفهم الآن سبب هربها فى ساعة كهذه .. ولم يجد ما يقول سوى :

ـ « استمرى فى القصة يا فايله .. »

استدارت نحوه ولم يكن قد رأى وجهها بعد ..

قالت فى ازدراء :

ـ « ألم أقل لك كل شىء ؟ »

قال فى ارتباك :

ـ « كل شىء ؟ »

ـ « الآن قل لى ما أفعله .. »

ـ « فايله ! »

قالها وهــو يشعر للمرة الأولى بنوع من النفور من هذه المحادثة . وقبل أن يفهم ركعت على ركبتيها أمامه وتمسكت بساقيه وقالت :

ـ « قل لى ! .. »

سقط الخمار عن وجهها فبدت على قدر ملحوظ من الجمال ، حتى أن الحاخام اشاح بوجهه كأنه يرى وهجًا من نور .

ـ « أنت وحدك قادر على أن تدلنى .. أنا لست زوجة ولن أكون .. قل لى .. لن أنهض حتى تخبرنى .. نافتالى ! »

تراجع الحاخام وهو يئن ألمًا مما عرض رأس الفتاة لأن يرتطم بالأرض .. عادت الفتاة تصرخ :

ـ « نافتالى ! »

ـ « صمتًا ! »

قالها وهو يضغط بيديه على رأسه .

ـ « نافتالى ! »

ـ « صمتًا .. »

قالها بصوت عال هذه المرة حتى أنها رقدت على الأرض صامتة . راح يجوب القاعة كى يهدئ انفعاله قليلاً .. لو أن أحدًا رأى وجه الحاخام وقتها لملأه الرعب .

ـ « أصغى لى يا فايله .. »

ـ « أنا مصغية .. »

ـ « سوف أقول كلامًا يثير رعبك .. [illegible] .. »



ـ « سأنفذه .. اقسم لك .. »

ـ « لا .. لا تقسمى حتى تسمعى ما سأقول .. اسمعينى يا ابنة روبين كلاتنر . على كاهلك ذنبان ثقيلان لا يمكن الخلاص منهما إلا بعقاب شديد . لقد أرغمت قلبك على الكذب لأنك مفتونة بالذهب .. خدعت الرجل الذى منحك ثقته حين اختارك زوجة . الكذب هو أسوأ الخطايا وهو سبب أسوأ ما حدث للبشرية .. »

بكت المرأة :

ـ « أعرف هذا .. »

ـ « الخطيئة الثانية هى أنك دمرت حياة إنسان آخر .. لقد فقد الرغبة والقدرة على أن يكون سعيدًا للأبد .. هذه الخطيئة تحتاج إلى عقاب عنيف كى تتوبى .. كنت صامتة عندما كان عليك أن تتكلمى .. الآن آمرك بأن تظلى صامتة مع الجميع .. ستكونين خرساء منذ أن تتركى هذا المعبد وحتى أقول لك .. »

قالت :

ـ « سأفعل ما تقول .. »

ـ « وأنت زوجة زوجك ... عودى له وكونى زوجة صالحة .. »

ـ « أفهم .. »

ولثمت يده وهى تبكى .. فقال لها منهارًا :

ـ « اذهبى الآن .. »

واندفعت عبر الباب خارجة .. تركته مفتوحًا فنهض الحاخام ليغلقه ..

* * *

عادت فايله لبيتها فلم يرها أحد .. كانت أمها سيلدى على نفس المقعد الذى جلست عليه منذ ساعة ، وكان الرعب قد جعلها مشلولة تمامًا . شد ما اختلفت الغرفة المقفرة عما كانت منذ ساعات .

عندما دخلت فايله لم تصرخ أمها فلم تكن فيها قوة باقية . فقط قالت :

ـ « هل عدت يا بنتى ؟ »

كأن فايله كانت تجول فى الجوار فقط .. لكن الفتاة لم ترد .. عاد الأب والزوج من الخارج فأصابهما الذعر لما طرأ على الفتاة من تغيير . ومن هذه اللحظة بدأت توبة الفتاة المريعة .

التغير الذى طرأ عليها أثار دهشة الناس .. وقرروا أنها عين حسود تلك التى جعلتها فى هذه الحالة بسبب مرحها وجمالها فى تلك الليلة .

أطلقوا عليها (فايله الصامتة) .. كان صمت امرأة وهو صمت له تأثير وقوة كاسحة أعلى من أى صراخ .

عادت فايله لدارها مع زوجها .. البيت الذى خلب لبها ما فيه من ذهب وفضة . بالنسبة للناس ظلت فى المقدمة لأن المرء لا ينال كل شىء .. ظلت الأجمل والأكثر نضارة وصمتها لم يقلل من سحرها .

لكنها لم ترزق بطفل فى البداية ، وقال الناس إن هذا عادل .. امرأة لا تتكلم يصعب عليهـــا أن تربى طفلاً . لكنها ذات يوم أنجبت طفلة .. وحينما نامت الطفلة على صدرها وأصدرت تلك الأصوات الجميلة التى يصدرها الأطفال لم تتكلم .. كانت مرغمة على الصمت . وقد ظلت صامتة والطفلة تكبر أمام عينيها .. لم تنس توبتها ، وبعد أعوام جاء صبى جميل .. ظلت صامتة وقد سيطرت عليها فكرة أن الحنث بعهدها سوف يجلب لعنة على طفليها . كبرت الطفلة لتصير كبرعم جوار زهرة مكتملة رائعة الجمال .. جاء الخُطّاب واختارت الأم أفضلهم لابنتها ..

لكن قبل الزواج بأسابيع تفشى وباء مروع ، كان ينتقى الفتيات اليافعات ليقضى عليهن . وخلال ثلاثة أيام صارت هناك جثة شابة فى البيت . حتى وهى تحمل ابنتها للقبر لم تنس القسم .. فقط أطلقت صرخة ألم عاتية . وبدأت تذبل بعد هذا .. امتلأ وجهها بالتجاعيد وشاب شعرها حتى أن الناس تساءلوا عن كيفية بقاء اللحم والروح معًا .

ابنها كان فى الثالثة عشرة من عمره ، وكان تلميذ الحاخام الذى أحبه كثيرًا وقال إنه مرموق وموهوب . وهكذا قرروا أن يسافر ليدرس . عاد لأمه بعد أعوام حاملاً شهادات عالية جدًا ، فانتعشت وبدا كأن لمحة من جمالها القديم تعود .

وفى يوم السبت تأهب تلميـــذ التلمود الجديد الذى لم يتجاوز عشرين عامًا إلا بقليل كى يلقى درسه الأول . تزاحم القوم كتفًا لكتف فى المعبد ، وراحت النسوة ينظرن عبر المشربيات العلوية . كانت فايله ترى كل ما يدور تحت . كانت شاحبة بينما الكل ينظر لها .. لسبب ما كانت تشعر بإرهاق غريب لم تمر به فى حياتها . كأنها بحاجة ماسة للنوم ..

بدأ نطق كلماته الأولى .. هنا شعرت بأن خديها يحترقان .. نهضت واقفة .. لم تستطع فهم ما يقوله ابنها .. فقط تسمع

همهمة استحسان تعلو وتخفت ..وسمعت النسوة جوارها يبكين تأثرًا ..

كان ألم عظيم يعتصر قلبها .. وعندما أنهى ابنها كلمته صرخت من أعماقها والقت بنفسها على خشب المشربية .

ــ « رباه !.. ألا يحق لى الكلام ؟ »

ساد الصمت وعرف الجميع أنه صوت المرأة الصامتة ... هناك معجزة !

جاء صوت الحاخام من مقاعد الرجال :

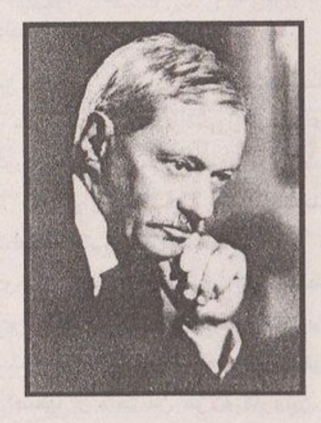
ــ « تكلمى !.. الآن يحق لك أن تتكلمى ! »

لكنها لم ترد . لقد سقطت ويداها على صدرها . نظرت لها النسوة فوجدنها قد غابت عن الوعى . لا .. المرأة الصامتة قد ماتت . كان تباعد شفتيها آخر لحظة لها .

بعد أعوام مات الحاخام .. وعلى فراش الموت حكى لمن حوله قصة تكفير فايله عن ذنبها .

الرجل الذى تمادى أكثر من اللازم

بقلم إ . ف . بنسون



ولد بنسون عام 1867 . وهو قصصى وكاتب بريطانى . له قصص شهيرة جدًا فى الأدب البريطانى لكنه اشتهر كذلك بقصص الأشباح . كـان لافكرافت سـيد الرعب الأمريكى شديد الإعجاب ببنسون وبالذات بهذه القصة التى نقدمها هنا .

تكمن قرية (سانت فيث) فى واد على الضفة الغربية لنهر (فون) فى هامبشاير ، تتكوم قرب كنيستها كأنها تحتمى بها من الجنيات والأقزام الذين ربما ما زالوا يوجدون فى الغابات ليمارسوا شيطنتهم بعد الغسق .

خارج النجع يمكنك أن تمشى فى أى اتجاه لمسافة طويلة جدا دون أن تقابل بشرًا . ربما تتوقف الخيول البرية عن الأكل عندما تراك ، أو تتكور الأرانب هاربة ، لكنك لن ترى بشرًا . لن تشعر بالوحدة لأن الفراش يسبح فى ضوء الشمس ، مع كل الأوركسترا الطبيعية التى تشكل صخب يونيو . صوت الطيور وأزيز النحل وخرير الجدول .. ستشعر بأنك وسط موجودات لا حصر لها . وبرغم قرون تعلم فيها الإنسان كيف يروض الطبيعة فإن سكان سانت فيث لم يكونوا يجازفون بدخول الغابة بعد الظلام . من الصعب أن تأخذ من هؤلاء القرويين قصة واضحة عن ظواهر خارقة ، لكن الخوف منتشر بينهم .

هناك قصة واحدة سمعتها وهى محددة نوعًا ، هى قصة عن تيس عملاق يركض فى الغابات وهو يتوهج بضوء جحيمى . وهذا قريب نوعًا من القصة التى أحاول أن أحكيها هنا . قصة عن فنان شاب مات هنا ، وكان ذا طلعة فيها شىء يجعلك تبتسم .

شبحه كما يقولون يمشى بلا توقف عبر الغابات ويسكن بيتًا معينًا .. آخر بيت فى القرية وحديقته التى قتل فيها . وأنا أعتقد أن الخــوف مـــن الغابات يعــود لهــذه الحـــادثة ، كمـــا يتعلق بـــ (دارسى) الرجل الذى كان صديقًا لى وصديقًا للقتيل .

* * *

كان يومًا ساحرًا من أيام منتصف الصيف ، وكان الليل يزداد سحرًا ويبدو كمعجزة فى كل لحظة . وكان نهر فون يرقد تحت ملاءات من أزرق السماء ، ويلتف حول الغابة حيث يمتد جسر من الحديقة نحو آخر بيت فى القرية ، ويتصل بالغابة نفسها عبر جسر من الخيزران .

كان ذلك البيت يقبع خارج الظلال وكان الطريق المنحدر ما زال تغمره الشمس . ثمة أحواض أزهار ذات ألوان مبهرة تغطى ممراته المكســـوة بالحصى . وهنـــاك طريق طوبى تحيط به الأشجار على الجانبين ، وهناك أرجوحة معلقة .

كان البيت يقع بعيدًا عن القرية فلا يتصل بها إلا بوساطة ممر غطاه القش الآن . بيت منخفض هو ذو طابقين فقط وجدرانه مكسوة بأزهار متفتحة . وثمة شرفة يقف فيها خادم منهمك

بإعداد المنضدة للعشاء . انتهى من عمله ، فعاد للبيت ثم ظهر وعلى ساعده منشفة واتجه للأرجوحة .

ـ « الثامنة يا سيدى .. »

سأله صوت من الأرجوحة :

ـ « هل ظهر مستر دارسى ؟ »

ـ « لا يا سيدى .. »

ـ « لو لم أعد لدى عودته ، قل له إننى آخذ حمامًا قبل العشاء .. »

عاد الخادم للداخل بينما جاهد (فرانك هالتون) ليستعيد توازنه حيث رقد على الأرجوحة .. ثم جلس . كان نحيلاً لكن الرشاقة التى تحرك بها أعطت انطباعًا بأنه قوى . حتى وثبته من الأرجوحة لم تكن خرقاء . كان رأسه صغيرًا وبشرته الناعمة توحى بأنه مراهق لم تنم لحيته بعد . لكن نظرته المحنكة كانت تجعلك حائرًا بصدد سنه .. ثم تقرر أن تنسى هذا ..

رأسه مكسو بشعر مجعد بنى بينما لم يكن يلبس سوى قميص مفتوح . وعندما وثب إلى الماء كان يغمض عينيه ويسبح على ظهره ويهمس لنفسه :

ـ « أنا وهو واحد .. النهر أنا وأنا النهر .. أنا العشب المائى والبرودة .. يداى ليستا لى بل هما للنهر .. كلانا واحد .. »

* * *

عندما عاد للبيت كان الخادم قد اقتاد للداخل رجلاً فى العقد الرابع من عمره ..

ـ « عزيزى دارسى .. يسرنى أن أراك .. »

لكن الآخر نظر له فى دهشة :

ـ « فرانك !! »

ـ « نعم .. أنا .. »

ـ « ماذا فعلت بنفسك ؟.. لقد عدت صبيًا .. »

ـ « لدى كثير مما أخبرك به .. ولسوف تصدق كل شىء .. »

ثم رفع يده :

ـ « صه .. هذا صوت الكروان الذى أحبه ! »

وارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتيه وبدا كأنه عاشق يصغى لصوت حبيبته .

أشعل دارسى سيجارًا وقدم لصاحبه واحدًا فضحك فرانك وقال :

ـ « لا .. ليس لى .. كنت أدخن فى الماضى ويا لغرابة هذا .. »

ـ « أقلعت ؟ »

ـ « لا أعرف .. أعتقد هذا .. سوف أفكر كذلك فى موضوع أكل اللحم"

ـ « أنت ضحية أخرى على مذبح النباتيين ؟ »

راح فرانك يصفر فى نعومة . حلق طائر صغير نحوه فأمسك به وضمه لصدره .. وسأله :

ـ « هل البيت وسط الغابة آمن ؟.. هل المدام بخير ؟.. »

وتركه يحلق .. فقال دارسى فى دهشة :

ـ « هذا الطائر أليف جدًا .. »

ـ « هو كذلك .. »

* * *

طيلة العشاء راح فرانك يستقصى كل أخبار صديقه القديم الذى لم يره منذ ستة أعوام . ستة أعوام كلها نجاح لـ (دراسى) ..

لقد اشتهر كرسام بورتريه ونجح جدًا .. إلا أنه منذ اشهر أصيب بنوبة تيفود واضطر للقدوم لهذه البقعة للاستشفاء .

قال فرانك :

ـ « لابد أنك تسبح فى المال .. لكن سؤالى هو كم حققت من سعادة ؟ .. هذا هو أهم شىء .. وكم تعلمت ؟.. »

قال دارسى :

ـ « لا قيمة لما تعلمته مقارنة بك .. كانت لوحاتك تكسب الكثير من المال .. ألا ترسم الآن ؟ »

ـ « نعم .. أنا مشغول ولا أرسم .. »

ـ « وماذا تفعله إذن ؟ »

ـ « لا أفعل أى شىء .. مشغول بعمل لا شىء .. »

نظر دارسى لوجه صديقه وقال :

ـ « واضح أن هذا النوع من العمل يناسبك جدًا .. لكن هل تقرأ ؟... أذكر ما كنت تقوله لى من أننا معشر الرسامين نستفيد لو درسنا وجهًا بشريًا واحدًا لمدة عام دون أن نخط خطًا واحدًا ..

يبدو لى أنك قضيت الأعوام الستة فى استعادة شبابك لتبدو فى العشرين ، وهذا يبدو لى غريبًا .. كأنه اهتمام أنثوى .. »

ضحك فرانك وقال :

ـ « الشباب .. لو فكرت فى الأمر لوجدت أنه القدرة على النمو .. نمو فى العقل والجسد والروح .. فى كل يوم تصير أفضل مما كنت .. بينما عند سن معينة يأتى كل يوم جديد ليضعف قبضتك على الحياة أكثر . أنت أقل كهربائية مما كنت .. »

بدأت النجوم تظهر فى السماء المخملية وبدأ القمر يقترب من الأفق . ومشى الليل بين الأحراش .. مشى فرانك إلى الشرفة وفتح ذراعيه وراح يعب الهواء عبًا . ثم عاد إلى الداخل وقال :

ـ « سيبدو هذا جنونًا لك لكن ما سأخبرك به حقيقي.. تعال للحديقة لو لم يكن الجو باردًا عليك .. ما سأخبرك به لم أخبر به أحدًا قط .. »

مشيا إلى ظلام ممر الأشجار وجلسا . ثم قال فرانك :

ـ « كنا منذ أعوام نتكلم عن زوال البهجة فى الحياة .. كنت أؤمن طيلة حياتى أن الخطيئة الكبرى هى الوجه العابس ، وأن

البهجة هى أهم شىء فى العالم .. البهجة هى أكبر نعمة مقدسة نالها الإنسان . عندما غادرت لندن اعتزمت أن أكرس حياتى لزرع البهجة فى النفوس والبحث عنها . لم يكن هذا سهلاً لأن هناك تعاسة فى كل مكان .. بحثت بين الأشجار والطيور والحشرات حيث الهدف الأقصى للحياة هو أن تكون سعيدًا . لم يعد الإنسان قادرًا على الشعور بالسعادة الفطرية الأولى .. »

قال دارسى وهو يستدير فى مقعده :

ـ « وماذا يسعد الحيوانات ؟.. الطعام والتزاوج ! »

ضحك فرانك وقال :

ـ « لا تحسبنى غرقت فى لذات الحواس .. الشخص الحسى يحمل التعاسة معه . ربما كنت مجنونًا لكنى لست غبيًا .. فكر فى الشىء الذى يجعل الكلاب الصغيرة تلعب بذيولها والقطط تنطلق فى مهمات حماسية ليلاً.. لجأت إلى الطبيعة .. جئت هنا وحاولت ألا يقتلنى الملل .. أقمت فى هذه الغابة وانتظرت .. »

هنا تساءل دارسى فى دهشة من منطلق التفكير البريطانى ، الذى يعتبر كل فكرة جديدة هراء :

ـ « تنتظر ماذا ؟.. ماذا كان سيحدث ؟ »

من جديد ضحك فرانك وقال :

ــ « الحمدلله أن الغضب شيء تخلصت منه منذ زمن وإلا لضايقتنى كلماتك هذه .. إن ما قمت به كان مهمًا جدًا للبشرية لأن السعادة معدية أكثر من داء الجدرى .. رحت أرمق أشياء سعيدة وتفاديت كل ما هو تعس .. يمكننى الآن أن أنقل لك جزءًا ضئيلاً من السعادة التى تجرى فى دمى .. سوف تلقى بالعالم والرسم وكل شيء .. فقط تعيش .. عندما يموت المرء يتحلل جسده وينتقل للأشجار والأزهار . هذا ما أحاول عمله بروحى قبل الموت .. »

قال دارسى فى حماسة :

ــ « أكمل .. يمكننى بسهولة أن أدرك أنك تقول الحقيقة .. أرى أنك مجنون لكن هذا غير مهم .. »

ضحك فرانك وقال :

ــ « لا تهم الأسماء .. الله منحنا كل شيء لكنه لم يختر له اسمًا .. عندما خلق الله لآدم الحيوانات لم يسمها وإنما ترك اختيار أسمائها لآدم نفسه .. هكذا لاحظت الأشياء السعيدة فصرت سعيدًا ..

"منذ ثلاثة أعوام كنت أجلس فى مكان سوف أريه لك غدًا . جلست هناك لا أفعل شيئًا سوى الإصغاء .. سمعت نايًا يعزف لحنًا عجيبًا . لم يكن يكرر نفسه ولم يكن ينتهى أبدًا .. لقد سحرنى تمامًا .. هنا فهمت أنه يأتى من الأعشاب والأشجار .. إنه صوت الحياة .. صوت الكون .. صوت (بان) .. أصابنى الرعب الوقتى وسددت أذنى وجريت لأتوارى .. لقد طلبت السعادة من الطبيعة فصرت أسمعها .. لم أسمع هذا الصوت ثانية إلا بعد ستة اشهر .. هذه المرة لم أكن خائفًا . سوف تلاحظ أن الحيوانات والطيور تتعامل معى بشكل حميم .. لكن لا تخف .. لن أضايقك بهذا الموضوع ثانية ولن أفتحه إلا إذا سألتنى .. هناك رؤيا أخيرة تنتظرنى بها أعرف كل شيء .. وفى هذه الرؤيا ستعرف أنه لا يوجد أنا ولا أنت ... نحن كل كبير متوحد مع الحياة ذاتها . قد تعنى هذه اللحظة موت جسدى .. لكن لا أبالى .. »

تأمله دارسى قليلاً ثم قال :

ــ « أنت تخاف هذه اللحظة .. »

ــ « أنت دقيق الملاحظة .. لكن آمل حين تأتى ألا أكون خائفًا .. »

نهض دارسى مترنحًا وقال :

ــ « أيها الصبى .. أنت أغرقتنى فى قصة خيالية ، والآن أعرف أننى لن أنام .. ولا خير فى إن لم أنم .. »

ــ « يمكننى أن أجعلك تنام بسهولة .. اصعد لغرفتك وانتظرنى بعد عشر دقائق .. »

بعد قليل لحق بصاحبه الذى كان يرقد فى الفراش مفتوح العينين ، فقال له :

ــ « انظر لى .. الطيور فى أعشاشها نائمة .. الريح نائمة .. البحر نائم .. النجوم تتأرجح ببطء فى مهد السموات .. »

ثم توقف . وبرفق أطفأ بأنفاسه شمعة دارسى وتركه ينام ..

فى الصباح استيقظ دارسى منتعشًا ، مع الشمس تذكر خيوطًا من محادثة البارحة .. الليلة التى انتهت بتنويم مغناطيسى بسيط . القصة كلها هكذا .. تنويم مغناطيسى من إرادة أقوى من إرادته . هذا هو كل شىء ..

نزل إلى الإفطار حيث كان فرانك قد سبقه ، وكان يلتهم العصيدة واللبن بشهية هائلة . سأله :

ــ « نمت جيدًا ؟ »

ــ « جدًا .. أين تعلمت التنويم المغناطيسى ؟ »

ــ « جوار النهر .. »

قال دارسى :

ــ « أنت تكلمت فى كثير من الهراء أمس.. لهذا طلبت لك جريدة اليوم .. يمكنك أن تستعيد الواقع وتقرأ قليلاً عن أسواق المال ومباريات الكريكت .. »

فى ضوء النهار بدا فرانك أكثر نضارة .. فقال دارسى وقد شعر بأن منطقه يهتز :

ــ « أنت إنسان مدهش وإننى لأرغب فى سؤالك بعض الأسئلة .. »

ــ « كما تريد .. »

* * *

فى اليوم التالى أمطر دارسى صديقه بالأسئلة والاعتراضات . كان فرانك يؤمن بأن استسلامه التام للقوى التى تحكم الحياة قد منحه جزءًا وافرًا من مادة الحياة ذاتها . كان فرانك أقرب إلى ما يعتنقه الوثنيون من معتقدات .

قال له دارسى :

ـ « تذكر أن رؤية (بان) تعنى الموت[*] .. »

هز فرانك كتفيه وقال :

ـ « كان الإغريق على حق فى أمور كثيرة ، لكن ماذا يهمنى ؟.. إذا رأيت (بان) فقد اقتربت كثيرًا جدًا من سر الحياة"

لكن دارسى بدأ يفهم أكثر .. كانا يمشيان فى القرية عندما رأيت عجوزًا عاجزة عن المشى تجاهد كى تتحرك ، فدنا منها فرانك ونظر لها .. نظرت له العجوز كأنها تتشرب نضارته ثم لثمته وضحكت :

ـ « أنت الشمس ذاتها .. إننى أشعر بأننى أفضل .. »

لكن على بعد خطوات كان غلام صغير يركض فتعثر .. سقط سقطة شنيعة وأطلق صرخة ألم مروعة . هنا فوجئ دارسى بفرانك يسد أذنيه ويجرى بأقصى سرعة بعيدًا عن الصبى . جرى دارسى وتأكد من أن الصبى بخير ثم لحق بصاحبه ليلومه :

(*) بأن هو إله المراعى عند الإغريق وهو يشبه الماعز أو التيس ، ويعزف الفلوت الخاص به المصنوع من قصبات متلاصقة . عندما جاءت المسيحية اعتمدت شكله ليكون الشكل المتعارف عليه للشيطان . هذه القصة تعتبره حقيقيًا ونغماته هى سر الطبيعة ذاته ..

ـ « هل أنت خال من الرحمة ؟.. لماذا لم تنتظر لتنقذ الصبى ؟ »

قال فرانك :

ـ « ألا تفهم ؟.. الألم والغضب وأى شىء كريه يجعلنى أفر .. يؤخر قدوم اللحظة العظمى .. »

ـ « لكن العجوز ؟.. كانت قبيحة مريضة .. »

ـ « بل كانت مثلى .. تشتاق للسعادة .. عرفتها عندما رأتْها .. »

ظل دارسى فى أحضان الطبيعة فترة طويلة ، وقد أعاد هذا له حيويته ولياقته .. شعر بأنه قد تعرض هو الآخر لسحر شخصية فرانك . ولأكثر من عشرين مرة كل يوم كان يجد نفسه يقول :

ـ « هذا مستحيل .. هذا لا يمكن أن يكون ممكنًا .. »

وأدرك من تكراره لهذه العبارات أنه يصارع نفسه وأن الفكرة بدأت تقنعه .

كان الطقس باردًا فى تلك الأيام ، لكن فرانك ظل على عادته يبيت فى الخارج على الأرجوحة تحت الأمطار الليلية ، وكان يعود للدار ليقول :

ــ « أصاب بالبرد ؟.. لقد نسيت كيف يحدث هذا .. يبدو أن البيات فى العراء يزيد من مناعة المرء .. الذين يبيتون داخل البيوت يذكروننى بفاكهة أزيلت قشرتها .. »

ذات مرة قال لصاحبه :

ــ « لا أعرف ماهية الرؤيا التى تنتظرنى .. ربما كان ما ينتظرنى هو رؤية كل الألم والمقت فى العالم فى لحظة النهاية . لكن لا سبيل للتراجع .. لقد مشيت فى خط واحد وتماديت .. تماديت أكثر من اللازم ، فلم يعد أمامى سوى أن أمضى فى الخط إلى نهايته .. لن أتراجع خطوة واحدة .. »

بدأ الطقس يتحسن واعتاد دارسى أن يواصل مناقشاته فى العراء مع صديقه ..

فى ذلك اليوم كان نائمًا نومًا غير مريح ، عندما صحا فجأة .. شعر بأنه فى أرض الذعر تلـك الواقعة بين النوم واليقظة .. للحظات انتظر حتى استعاد توازنه وخيل له أنه يسمع من الحديقة صرخة .. صرخة تعبر عن أعنف درجات الذعر والقنوط .

كانت هناك كلمات غير مفهومة ، ثم صوت مألوف يرتجف ويقول :

ــ « رباه !.. رباه ! »

ثم دوت ضحكة غريبة كأنها ثغاء ماعز .. وساد الصمت ما عدا صوت الريح .

لم ينتظر دارسى ليضع شيئًا على جسده أو يشعل شمعة ، ركض دارسى نحو مقبض باب غرفته . على الباب قابل وجهًا ألجمه الرعب .. كان هذا هو الخادم يحمل ضوءًا وسأله :

ــ « هل سمعت ؟ »

كان وجه الرجل أبيض تمامًا :

ــ « نعم يا سيدى .. هذا هو صوت سيدى .. »

* * *

هرعا عبر الدرج وعبرا قاعة الطعام حيث كانت منضدة الإفطار قد وضعت فى الشرفة . كان المطر قد توقف كأنما الصنابير فى السماء قد أغلقت . ولم يكن الظلام دامسًا .. خرج دارسى للحديقة يتبعه الخادم حاملاً شمعة . روائح النباتات والأزهار تملأ الجو من حوله بينما ظله الحائر يرتسم أمامه . هناك رائحة حادة تذكره بشاليه أقام فيه ذات مرة فى جبال الألب .

وعلى ضوء الشمعة رأى الأرجوحة التى كان فرانك يرقد عليها دومًا . كان هناك قميص أبيض كأن الرجل ما زال هناك . إذ دنا كانت الرائحة النفاذة تتزايد .

دنا أكثر فوثب ظل أسود عملاق فى الهواء .. ثم سمع صوت حوافر صلبة على الأرض المرصوفة بالقرميد ثم سمع صوت حوافر تركض عبر الممر . يرى الآن شيئًا بقميص أبيض يجلس فى الأرجوحة .. اقترب فى حذر بفعل الرعب .. ومعه الخادم ..

بالفعل كان هذا هو فرانك .. كان يلبس قميصه والسراويل فقط وقد جلس ينظر لهما بوجه صار قناعًا للرعب . لقد انفتحت شفته العليا كاشفة عن لثته وكان ينظر فى رعب لا لهما بل إلى شىء جواره ... كانت طاقتا أنفه متسعتين كأنه كان يلهث من أجل الهواء . ثم سقط الجسد للخلف وأنّت حبال الأرجوحة .

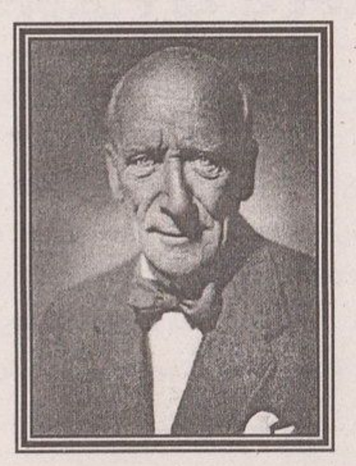
رفعه (دارسى) وحمله إلى البيت ..

شعر بتقلص فى ذراعى الجسد الذى يحمله ، لكن التقلص تلاشى عندما بلغ البيت . لم يبق سوى وجه طفل يبتسم أثناء النوم كأنه يصغى للمعزوفة الجميلة من فلوت (بان) ..

لقد استحم فرانك الليلة كعادته .. وكدأبه لم يكن يلبس سوى القميص وقد ثنى كميه لأعلى .. الآن يبدو على صدره خليط من الألوان يزداد وضوحًا . عندما اقتربا أكثر ليفحصا هذه الألوان رأيا أنهـــا آثار .. آثار كأنها حوافر تيس عملاق داس على صدره .

قصة أشباح تحكيها امرأة

بقلم الجرنون بلاكوود



كاتب قصة قصيرة وصحفى ومذيع بريطانى تخصص في قصص الأشباح . ولد عام 1869 وتوفى عام 1951. له مجموعة قصصية مهمة وشهيرة اسمها (مغامرات لا تصدق) .

قالت من مقعدها فى الركن المظلم :

— « نعم .. سوف أخبرك بتجربة غريبة لو كنت مهتمًا . والأهم سوف أخبرك بها بشكل مختصر دون تفاصيل لا داعى لها . هذا شىء لا يفعله رواة القصص . إنهم يضعون تفاصيل لا حصر لها ويجعلون مهمة القارئ فكها .. سوف أعطيك ما هو مهم ولتستخلص أنت ما تريد . لكن بشرط ألا تسأل فى النهاية لأنه لا إجابات عندى .. »

وافقنا على الفور .. كنا جادين تمامًا بعد سماع دستة من القصص الطويلة من قوم يريدون أن يتكلموا دون أن يكون عندهم ما يقولون . كنا نريد معلومات مهمة .

شعرت من صمتنا أننا نتابعها فقالت :

— « فى تلك الأيام ، كنت مهتمة بالأمور الروحية.. وقررت أن أبقى وحدى فى بيت مسكون فى قلب لندن . كان بيتًا رخيصًا فى شارع حقير .. غير مفروش . كنت قد فحصت المكان عند الظهر والمفاتيح فى جيبى . كانت القصة ممتعة ومثيرة ، لكنى لن أرهقكم بتفاصيل قتل المرأة ولا لماذا صار المكان مسكونًا .

لذا شعرت بملل عندما رأيت الحارس الذى أعتبره ثرثارًا عجوزًا ، وكان ينتظرنى عندما ذهبت فى الحادية عشرة مساء . كنت قد شرحت له أننى أريد أن أكون وحيدة ليلاً . كنت قد دفعت له مقابل مقاعد ومنضدة لذا قلت له :

ـ « إذن فلتفرغ بسرعة .. »

اقتادنى للطابق الأول حيث وقع القتل فجلست فى المقعد الذى جلبه لى . واستدرت لأنظر له للمرة الأولى . هنا صدمت . لم يكن الرجل هو حارس البيت .. لم يكن ذلك الأحمق العجوز الذى قابلته ظهرًا .

قلت له :

ـ « من أنت من فضلك ؟.. أنت لست العجوز كارى ... »

توترت كما لك أن تتخيل . كنت باحثة فى الأمور الروحية ومتحررة ، لكنى لم أشعر براحة لأن أجد نفسى ليلاً فى بيت مهجور مع رجل غريب . تخلت عنى ثقتى بنفسى .. وأنتم تعرفون أن ثقة المرأة بنفسها تتلاشى فى لحظة بعينها . شعرت بذعر حقيقى .

كررت السؤال بسرعة وعصبية :

ـ « من أنت ؟ »

كان أنيقًا على درجة من الوسامة لكن وجهه شديد الحزن . قال لى :

ـ « أنا الرجل الذى أصابه الرعب حتى الموت .. »

كان صوته وكلماته كأنها نصل سكين .. شعرت بأننى سأفقد وعيى . عدت أكرر :

ـ « الرجل الذى أصابه الرعب حتى الموت .. »

قال بغباء :

ـ « هذا أنا .. »

نظرت له كما سيفعل أى رجل منكم لو كان فى موقفى . لا تسخروا منى .. هذا ما حدث .. كانت الحياة تتسرب منى . كانت أفكار كثيرة تتردد فى ذهنى ، لكنها كانت أفكارًا عادية برغم كل شىء .

قلت له مرتبكة :

ـ « حسبتك حارس العقار .. هل أرسلك كارى لى ؟ »

ـ « لا .. أنا الرجل الذى أصابه الرعب حتى الموت .. والأهم أننى خائف الآن .. »

ـ « وأنا كذلك .. أنا خائفة .. »

كان له صوت غريب يتردد فى داخلى . قال :

ـ « لكنك ما زلت تملكين جسدك .. أما أنا فلا .. »

وقفت فى الغرفة الخالية من الأثاث ودفنت أظفارى فى لحم كفى وضغطت على أسنانى . أردت أن استجمع شجاعتى كامرأة جديدة وروح حرة .

ـ « هل تعنى أنك لست جسدًا ؟... ماذا تتكلم عنه ؟ »

ولاحظت أن الليل قد غطى المدينة . أنا وحدى فى بيت خال مسكون بلا أثاث .. وأنا امرأة .. أسمع الريح خارج البيت وأعرف أن النجوم مخفية . فجأة أدركت كم أنا حمقاء إذ جئت هنا وحدى .. كنت خائفة متجمدة وحسبت أن نهاية حياتى قد حانت . من الحمق أن تتحرى الأمور الروحانية وأنت لا تملك أعصابًا .

تحرك الرجل ببطء عبر القاعة الخالية ..

رفعت ذراعى لأوقفه ونهضت من مقعدى . وقف أمامى وابتسامة على وجهه المنهك الحزين .

ـ « أخبرتك من أنا .. وأنا ما زلت خائفًا .. »

فى هذه اللحظة قررت أنه شرير أو مجنون... ولعنت غبائى للدخول من دون أن أرى وجهه . اتخذ عقلى القرار بسرعة . لو أننى أغضبته فلربما أدفع الثمن بحياتى . ربما يجب أن أسليه حتى أبلغ الباب ثم أركض فى الشارع . انتصبت وواجهته .. كان له نفس ارتفاع قامتى وكنت أنا امرأة رياضية قوية تتسلق الجبال فى الصيف وتلعب الهوكى . بحثت عن عصا لكن لم أجد.

رسمت مرغمة ابتسامة على شفتى :

ـ « الآن أتذكر .. أتذكر الطريقة الممتازة التى تصرفت بها .. »

نظر لى فى غباء وأنا أتراجع نحو الباب . هنا لم أتحمل أكثر واندفعت نحو الباب إلى الخارج لكن كنت حمقاء واتجهت فى الاتجاه الخاطئ . هكذا تعثرت فى الدرجات التى تقود للبناية المجاورة . فات الأوان لأن الرجل كان خلفى . برغم أننى لم

أسمع خطوات .. اندفعت أركض فمزقت تنورتى وكدت أهشم ضلوعى فى الظلام . اندفعت للحجرة الأولى وكان الباب مفتوحًا وهناك مفتاح فى القفل . فى لحظة أغلقت الباب خلفى والقيت عليه بثقلى وأدرت المفتاح .

صرت فى أمان لكن قلبى كان يدق كالطبل . هنا كاد يتوقف لأنى وجدت من يقف فى الغرفة . رجل يقف بينى وبين النافذة حيث تبين مصابيح الشارع حدوده الخارجية . لقد حبست نفسى معه !

وقف الرجل هناك يراقبنى وقد تكومت على الأرض .. لربما كـان هنـاك رجلان فى البيت .. لربما كانت الغرف الأخرى مشغولة !

هنا تغير شىء فى الغرفة أو فى أنا .. خوفى الذى كان ماديًا تغير فجأة ليصير روحانيًا .. وعلى الفور أدركت من هو هذا الرجل .

قلت له :

ـ « كيف وصلت هنا بحق السماء ؟ »

عاد يقول بذلك الصوت الذى يمزق حبلى الشوكى :

ـ « أنـــا من فضاء آخر .. أنا فى كل مكان بالبيت حسب طريقتكم فى القياس . أنا خارج جسدى .. أنا بحاجة للتغيير لأرحل .. أنا بحاجة للتعاطف .. ربما أكثر من التعاطف .. أنا بحاجة للحب ! »

كان يتكلم فنهضت واقفة . أردت الصراخ لكنى فقط نجحت فى أن أتنهد .. كنت مرهقة جدًا . اتجهت للمصباح وأنا ابحث عن أعواد ثقاب فى جيبى فقال لى :

ـ « أكون شاكرًا لو لم تشعلى المصباح .. لأن الضوء يؤذينى جدًا .. لا تخشى منى فأنا غير قادر على لمسك أصلاً .. هناك أناس كثيرون جاءوا هذا البيت ليرونى .. معظمهم استطاعوا ذلك وملأهم الرعب .. لو وجدت واحدًا لا يخاف !.. واحدًا يحبنى !.. لربما استطعت الرحيل .. »

كان صوته حزينًا حتى شعرت بدموع فى عينى ، لكنى ظللت خائفة .

قلت له :

ـ « من أنت إذن ؟.. لا أظن كارى أرسلك .. »



لم أجد ما أقول .. بينما قال هو :

ـ « لا أعرف كارى هذا .. وقد نسيت الاسم الذى كان جسدى يحمله . أنا الرجل الذى خاف حتى الموت فى هذا البيت منذ عشرة أعوام وما زلت خائفًا .. الناس القساة الذين يأتون هنا ليروا الشبح يزيدون من سوء حالتى . فقط لو تكلم أحدهم ببساطة أو ضحك .. بدلاً من أن يأتوا ليرتجفوا كما تفعلين أنت الآن .. »

غلبتنى الشفقة فتقدمت إلى مركز القاعة .. هنا صاح :

ـ « رباه !.. لقد قمت بعمل خارق !.. هذا أول تعاطف أراه منذ مت .. فى حياتى كان كل شىء خطأ معى . كنت أكره الناس ولا اطيقهم.. امتلأت غرفة نومى بالأشباح والشياطين ، وفى ليلة استبد بى الذعر حتى توقف قلبى . لربما لو أحبنى أحد أو أظهر عطفًا نحوى لتحررت .. عندما جئت عصر اليوم ورأيتك جاءنى بعض الأمل . خطر لى أنك تملكين الشجاعة .. ربما بعض الحب مما يمنحنى أجنحة أطير بها ! »

هنا أعترف بأن الرعب فارقنى ليحتل الحزن مكانه . لكن يجب أن أقول إن الموقف كله كان عجيبًا ولا يصدق .. ثم أن مقتل

امرأة قد تم هنا.. فلابد أنه لا علاقة له بما يدور . ما يدور هنا حلم مجنـــون ولسوف أفيق منه لأجد أننى فى الفراش بعد كابوس .

دنوت منه أكثر .. خائفة طبعًا لكن شيئًا من التصميم فى قلبي.

قال وصوته يرتجف :

ـ « أنتن معشر النســـاء .. النســـاء الجميـــلات اللاتى لا تمنحهن الحياة فرصة إخراج ما لديهن مـــن حب عميق... وليتكن تعرفن كم منا يموتون فى طلب هذا الحب !.. إنه ينقذ أرواحنا .. سوف يحررنا لو أخرجتنه دون شرط ولا قيد .. أريدك يا سيدتى أن تكونى رقيقة كريمة .. »

هذه المرة أغرق البكاء عينى ..

كان قد ترك مكانه عند النافذة وركع عند قدمى . وامتدت يداه نحوى .

ـ « لفى ذراعيك نحوى وقبلينى .. قبلينى بالله عليك ولسوف أعود حرًا .. هلم .. أنت قمت بالكثير فعلاً »

وقفت مترددة عاجزة عن اتخاذ قرار ، لكن الرعب كان قد تلاشى تمامًا .

قال لى :

– « انسى أنك امرأة وأننى رجل .. انسى اننى شبح وتعالى بجرأة ودعى حبك يسرى لى .. انسى نفسك للحظة وافعلى شيئًا شجاعًا .. »

شعرت بعاطفة أقــوى من الخــوف بكثير وبلا تردد تقدمت خطوتين نحوه ومددت له يدى . كان العطف والحب يغمران قلبى .. قلت له :

– « أحبك أيها الشىء التعس .. أحبك .. »

أدار وجهه لى .. وسقط ضوء الشارع عليه . كان وجهه يتألق سرورًا . نهض على قدميه ووقف أمامى وفى هذه اللحظة ضممته لصدرى ولثمته .

أنتم أيها الرجال الجالسون هنا تدخنون الغلايين وتسمعون قصتى ، ليس بوسعكم تخيل شعورى وأنا أضم كائنًا غير مادى وألثمه . كأنك تحتضن هبة هواء باردة .. وشعرت بقلبى ينتفض ثم فجأة صرت وحدى ..

أضأت مصباح الغاز وأشعلت عود ثقاب . لقد فارقنى الخوف تمامًا وشعرت فى قلبى بسرور نهار ربيعى . لم تعد كل شياطين العالم قادرة على أن تسبب لى رجفة واحدة .

فتحت الباب ورحت أجوب البيت المظلم والمطبخ والصندرة . كان البيت خاليًا تمامًا .. لقد تركه شىء ما .

ثم عدت لشقتى لأنام باقى الليلة ..

طلب منى عمى سير هنرى – وهو صاحب البيت – تقريرًا عن مغامرتى . بدأت السرد فرفع يده ليوقفنى وقال :

– « أولاً .. يجب أن أخبرك بحيلة صغيرة لعبتها عليك.. أناس كثيرون زاروا هذا البيت ورأوا الشبح حتى حسبت أن هذا وليد خيالهم . أردت عمل اختبار بسيط .. لذا اخترعت قصة أخرى لأتأكد .. لو رأيت شيئًا لعرفت أنه ليس وليد خيالك .. »

– « إذن قصتك عن مقتل امرأة وكل هذه لم تكن حقيقية ؟ »

– « لم تكن .. القصة الحقيقية هى أن ابن عم لى جن فى هذا البيت وقتل نفسه بعد رعب هائل أصابه .. وبعد زمن طويل قضاه فى الخيالات المرضية . هذا هو ما يراه الباحثون .. »

شهقت وقلت :

ـ « هذا يفسر كل شىء .. »

ـ « يفسر ماذا ؟ »

لم أرد أن أحكى كل شىء عن ذلك المسكين ، لذا قلت :

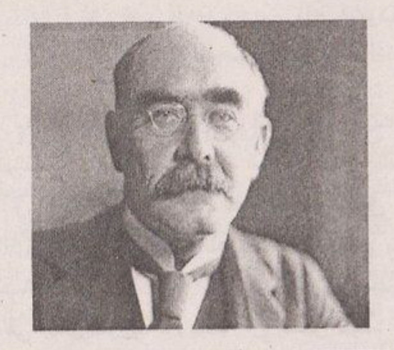
ـ « يفسر لماذا لم أر شبح المرأة .. »

قال سير هنرى :

ـ « بالضبط .. ولو رأيت أى شىء ذا قيمة ، فهذا مهم ... لن يكون ناجمًا عن خيالك الذى حركته قصة تعرفينها من قبل .. »

الريكشا الشبح(*)

بقلم رديارد كبلنج



كبلنج اسم أشهر من نار على علم . صاحب (كتاب الأدغال) الشهير وصاحب قصيدة (إذا) والقائل (الغرب غرب والشرق شرق ولا يمكن أن يلتقيا) . بوق الاستعمار البريطانى الشهير أو نبى الاستعمار كما أطلقوا عليه . ولد في الهند عام 1865 وتوفى عام 1936 . نال جائزة نوبل للأدب عام 1907 . كاتب يثير الجدل لكن لا يمكن تجاهله .

(*) الريكشا وسيلة نقل آسيوية هى عربة يجرها رجل

« فلتبتعد الأحلام الشريرة عن منامى ، ولتبتعد قوى الظلام عن التحرش بى .. »

أنشودة ليلية

* * *

من مزايا الهند التى تفوق بها إنجلترا هى تلك المعرفة الواسعة بالناس . بعد عامين من الخدمة يصير المرء ملمًا بالمائتين أو الثلاثمائة مواطن فى مقاطعته ، والفيالق العسكرية ونحو 1500 شخص لا ينتمون للطبقات الحكومية . بعد عشرة أعوام تتضاعف معرفته وبعد 12 عامًا يعرف شيئًا عن كل إنجليزى فى الإمبراطورية ، ويمكنه أن يسافر حيثما أراد دون دفع فواتير الفنادق .

عندها سوف تجد أن الرجال الذين لا يخفون رأيهم فى أنك حمار ، والنساء اللاتى يشتمنك ولا يفهمن دعابات زوجتك ، كلهم سوف يفعلون أى شىء لك لو مرضت أو واجهت مشاكل حقيقية .

كان لدى الدكتور هيثر ليج بالإضافة لعيادته الخاصة مستشفى يضع فيه الحالات التى لا تشفى . إن الطقس فى الهند قائظ ولا توجد

متعة سوى أن تعمل طيلة الوقت فلا يشكرك أحد . كان هيثر ليج من ألطف الأطباء الذين عرفتهم وكان ينصح مرضاه دائمًا بـ (ابق رأسك منخفضًا ، وتحرك ببطء ، واحترس من الحر) . كان يؤمن أن رجالاً كثيرين يموتون من كثرة العمل أكثر مما يستحق هذا العالم . كثرة العمل قتلت (بانساى) الذى مات بين يديه منذ ثلاثة أعوام . إنه يملك الكلمة النهائية ولا يهتم بما أقوله من أن (بانساى) مات لأن هناك إصابة بليغة فى رأسه .

ــ « لقد تأثر (بانساى) بالإجازة الطويلة فى الوطن .. فى رأيى أن العمل الطويل فى مستعمرة (كاتابوندى) أفقده صوابه . كان مخطوبًا لمس ماترنج وقد فسخت الخطبة . هنا بدأ هذا الكلام عن الأشباح .. العمل الزائد هو الذى سبب كل شىء وقتله هذا الشيطان البائس .. »

لم أكن أصدق هذا .. لقد جلست كثيرًا مع بانساى عندما كان هيثر ليج فى زيارات خارجية ، وكان يسبب لى تعاسة كلما وصف لى مسيرة الرجال والنساء والأطفال والشياطين الأبدية عند فراشه . كان تحكمه فى اللغة مرضيًا ، وقد اقترحت عليه عندما شفى أن يكتب تجربته كاملة ، وقدرت أن الكتابة ستعالجه .

عندما يتعلم الأطفال كلمة سيئة لا يستريحون إلا إذا كتبوها بالطبشور على باب . بعد شهرين قيل إنه صالح للعودة للعمل لكنه فضل أن يموت . لقد احتفظت بما كتبه ، وهذا النص يحمل تاريخ 1885 :

قال لى طبيبى إننى بحاجة للراحة وتغيير الهواء . من الوارد أننى سأظفر براحـــة طويلة لا ينغصها شىء .. وتغيير هواء لا تستطيع أية سفينة أن تمنحنى إياه . فى الوقت ذاته أريد أن أظل حيث أنا .

ستعرفون الحقيقة الكاملة لمرضى وستقررون إن كان هناك أى بشرى قد عانى ما عانيته أنا . سوف أتكلم كمجرم محكوم عليه ، وقد تبدو قصتى غير معقولة ، لكنى برغم هذا أطلب الانتباه . أما عن كونها ستحظى بالتصديق فأمر أشك فيه . منذ شهرين كنت سأتهم أى رجل يصدق هذا الكلام بأنه مجنون أو سكير .

منذ شهرين كنت أسعد رجل فى الهند ..اليوم لا يوجد رجل أكثر تعاسة منى من بيشاور حتى البحر . رأى الطبيب أن سوء الهضم والإرهاق يسببان لى خيالات . خيالات !.. أعتبره أحمق

لكنه ما زال يعالجنى بابتسامة لا تزول حتى بدأت أعتبر نفسى وغْدًا جحودًا .

منذ ثلاثة أعوام شاء حظى ــ أو سوء حظى - أن أبحر من جريفزند إلى بومباى مع من تدعى (أجنس كيث وسنجتون) .. وهى زوجة ضابط من بومباى . يكفى أن تعرف أنه بمجرد انتهاء الرحلة كنت أنا وهى غارقين فى الحب . فى هذه الأمور هناك من يمنح وهناك من يأخذ .. منذ اللحظة الأولى عرفت أن عاطفة (أجنس) هى الأقوى بل والأنقى . بعد فترة صار هذا واضحًا لكلينا .

وصلنا بومباى فى الربيع فذهب كل منا فى طريق ، ولم نلتق لثلاثة أشهر . عندما ذهبنا إلى سيملا . هناك انتهى حبى لها كنار فى قش . ولا أعتذر عن هذا أو أشعر بندم بسببه . فى أغسطس عام 1882 عرفت أننى لم أعد أطيق رؤيتها وتعبت من صحبتها . وكانت 99 من كل مئة امرأة سيكرهننى كما أكرههن ، لكن وسنجتون كانت هى المرأة رقم مئة . كانت تصيح كطائر الوقواق :

ــ « جاك يا عزيزى .. هذه كانت غلطة .. غلطة .. سوف نعود صديقين مرة أخرى .. أنا واثقة من ذلك .. »

كنت فى كل مرة المخطئ . هكذا تحولت عاطفتى إلى مقت .. المقت الذى يجعل الرجل يدوس بعنف على العنكبوت الذى قتله نصف قتلة .

فى العام التالى التقينا فى سيملا .. هى بوجهها الرتيب وأنا بكراهيتى بكل ذرة فى جسدى . لم أعد أتحمل أن أراها وحدى .. وفى كل مرة تكرر أن الأمر كله (غلطة) ..

ازدادت وهنًا ونحولاً شهرًا بعد شهر .. أنت تفهم أن هذا كان سيدفع أى امرئ إلى اليأس . كان هذا تصرفا طفوليًا لا يليق بأنثى .. كان عليها جزء كبير من اللوم .. من الناحية الأخرى كيف كنت سأتظاهر بأننى أحبها بينما أنا لا أقدر ؟..

العام الماضى التقينا من جديد وتكرر كل شىء فلما انتهى الموسم افترقنا ، ولم تعد قادرة على أن تلقانى . عندما أتذكر ذلك الوقت أشعر أنها كابوس .. كنت قد تقدمت لمس (كيتى مانرنج) وأذكر كلامها وتعلقى بها ، كما أذكر وجهًا أبيض يركب الريكشا . أذكر يدًا ذات قفاز تلوح لى .

كنت أحب كيتى مانرنج بصدق .. وكلما أحببتها أكثر ازداد كرهى لأجنيس . خطبت وكيتى فى أغسطس وفى اليوم التالى

ذهبت إلى أجنيس من باب الشفقة لأخبرها .. كانت تعرف كل شىء . قالت لى وهى فى عربة الريكشا الخاصة بها :

ـ « كل هذا خطأ يا عزيزى .. يومًا ما سنعود صديقين كما كنا .. »

كانت إجابتى قاسية .. قطعت المرأة البائسة نصفين كأنها سوط ، فانهارت أمامى . ابتعدت وتركتها تنهى رحلتها فى سلام شاعرًا ـ للحظة ـ أننى كنت نذلاً .

هذه الذكريات لم تفارق خيالى . أذكر السماء التى غسلتها الأمطـــار والطريق الموحـــل وعربة الريكشا الصفراء ورأسها الذهبى المنحنى . حرفيًا فررت منها فرارًا .

سمعت صوتًا يقول :

ـ « جاك .. »

لكن ربما كان هذا خيالاً . عندما قابلت كيتى بعد هذا على صهوة جواد ، نسيت كل ما كان فى هذه المقابلة .

بعد أسبوع توفيت مسز وسنجتون وزال عبء وجودها فى حياتى . ونسيت عنها كل شىء خلال ثلاثة أشهر فيما عدا خطاباتها القديمة التى أحرقتها جميعًا

فى أبريل عام 1885 كنت فى سيملا مع حبيبتى كيتى . قررت أن نتزوج فى نهاية يونيو . كنت كما قلت لك أسعد رجل فى الهند كلها . قلت لكيتى إن عليها أن تأتى لمتجر هاملتون كى أبتاع لها خاتم خطبة .. وهكذا ذهبنا فى 15 إبريل عام 1885 .. كنت على عكس كلام طبيبى فى خير صحة وعقل ممتاز .

قمت بقياس إصبعها واخترت لها خاتمًا من الياقوت به ماستان . انطلقنا فى شوارع البلدة وكانت تضحك .. طيلة الوقت كنت أشعر بأن هناك من ينادينى باسمى الأول .

عند محل (بيليتى) رايت أربعة من (الجامبانى)[*] يلبسون الزى الأسود والأبيض وهم يجرون ركشا رخيصة صفراء اللون مألوفة . هنا تذكرت الموسم السابق ومسز وسنجتون . هل أحتاج اليوم إلى ظهور عربة الريكشا التى كانت تركبها ، ما دامت هى نفسها قد ماتت ؟

قلت لكيتى :

ـ « كيتى .. هؤلاء هم الجامبانى الخاصون بمسز وسنجتون .. ترى مع من يعملون الآن ؟ »

نظرت كيتى حولها وقالت :

ـ « ماذا ؟.. لا أرى أحدًا منهم .. »

وانطلقت فى ذات الاتجاه . لذعرى الشديد رأيتها هى وحصانها يخترقان الرجال كأنهم من هواء . صرخت فاستدارت لى قائلة :

ـ « ماذا هنالك ؟.. لماذا تصرخ ؟.. لو كنت قد خطبت فلا أريد أن يعرف كل الكون ذلك .. »

إما أننى ثمل أو مجنون .. أو أن (سيملا) مسكونة بالعفاريت . استدرت بجوادى ففوجئت بالريكشا واقفة هناك عند جسر كومبرمير . كان الصراخ يدوى بلا شك :

ـ « جاك يا عزيزى !... لا تغضب .. هذا مجرد خطأ .. سوف نستعيد صداقتنا ! »

لا أعرف كم من الوقت وقفت هناك بلا حراك ، حتى جاءت كيتى واقتادتنى إلى محل بيليتى لأشرب بعض البراندى . هناك كان عدد من مواطنينا يثرثرون فانضممت لهم فى مرح ورحت أصيح وأضحك برغم شحوب وجهى الواضح ، كما رأيت فى المرآة . كنت كطفل صغير أفزعه الظلام فحشر نفسه وسط حفل عشاء ..

كذبت على كيتى وقلت لها إن شحوبى سببه الشمس الزائدة . كـــان يومًا لم تشرق فيه الشمس قط وقد عرفت كذبتى على الفـــور .

هذا أنا .. ثيوبولد جاك بانساى .. رجل حسن التعلم فى العام المقدس 1885 .. عاقل كما هو مفروض .. وصحيح البدن . أفر من حبيبتى بسبب خوفى من امرأة دفنت منذ ثمانية أشهر .

الشارع كان مليئا بالناس والشمس تغمره .. لقد رأيت كيتى تعبر الريكشا وسائقيها .. هكذا لا يوجد احتمال لدى أن تكون سيدة قد استأجرت العربة القديمة .

المرء قد يرى أشباح رجال ونساء لكنه لا يرى أبدًا أشباح عربات .

كل هذا سخيف ولا يصدق . وفى اليوم التالى أرسلت لكيتى أتوسل لها كى تنسى سلوكى الغريب أمس . كذبت وزعمت أن سبب ذعرى هو تسارع ضربات قلبى بسبب سوء الهضم . كان لهذا الخطاب أكبر الأثر لأننا التقينا عند الظهيرة . كانت ترغب فى نزهة على ظهر الجواد .. واقترحت (جاكو) ، لكنى طلبت أن نذهب لجبـــل المرصـــد أو (جوتـــوه) أو (بويلوجونج) ..

أى شىء غير جاكو.. لكنها كانت غضبى لذا وافقت على أن نذهب لبويلا سملا .

بدأ الجوادان يسرعان وراح قلبى يخفق أسرع فاسرع ..

كان كل جزء فى طريق (جاكو) يحمل ذكرى لى مع مسز وسنجتون.. كل شجرة تشهد على ذلك .. وراحت الريح تنشد فى أذنى أننى ظالم .

عند منتصف الطريق كان الرعب ينتظرنى . لم تكن ريكشا فقط لكن رأيت كذلك الجامبانى الأربعة بثيابهم البيضاء والسوداء والعربة صفراء اللون والشعر الذهبى للمرأة بالداخل ..

للحظة حسبت أن كيتى رأت ما رأيته أنا ..

هنا قالت لى :

ــ « ما من شخص هنا على مرأى البصر ..!.. تعال يا جاك أسابقك لبناية (ريزرفوار) ! »

واندفع جوادها العربى فى المقدمة

كانت الريكشا فى منتصف الطريق ، وبلا جهد اخترق حصانها العربى المشهد ، هنا سمعت (هذه غلطة .. غلطة .. سامحنى يا جاك !)

اندفعت كالمجنون نحو بناية (ريزرفوار) . وعدت أسمع الصياح من جديد .

كنت سأتناول العشاء مع آل مانرنج تلك الليلة لكن لم يبق وقت يكفى لاستبدال الثياب . كنت متجهًا نحو (اليزيام هيل) عندما سمعت رجلين يتكلمان فى الغسق .

ـ « شىء غريب .. كيف اختفت بالكامل بهذا الشكل ..؟.. أنت تعرف أن زوجتى كانت تعشق المرأة (ولا أعرف السبب) وطلبت منى أن أبتاع عربتها وأشياءها .. هل تصدق أن الرجل الذى استأجرت العربة منه قال لى إن سائقى الركشا كانوا أخوة ؟! وكلهم مات بالكوليرا .. شياطين مساكين .. وقد حطم الرجل نفسه الريكشا . قال لى إنه لا يستعمل أبدًا ريكشا شخص ميت .. »

ضحكت بأعلى صوتى .. إذن هذه أشباح موتى .. سائقو ريكشا من العالم الآخر ..

كم كانت تدفع لرجالها ؟.. أين ذهبوا ؟

وكأنما يجيب عن سؤالى رأيت الشىء الشيطانى يسد طريقى فى ضــوء الشــفق . الموتى يسافرون بسرعة وعبر طرق مختصرة لا نعرفها . ضحكت من جديد بصوت عال .. لابد أننى جننت لدرجة ما .. لقد دنوت من العربة وتمنيت لمسز وسنجتون ليلة طيبة .. لابد أن شيطانًا مجنونًا سيطر على فى تلك الليلة ، لأننى تبادلت حديثًا لمدة خمس دقائق مع راكبتها ..

ـ « مجنون كصانع قبعات .. ماكس .. ساعده على العودة للبيت .. »

لم يكن هذا صوت مسز وسنجتون طبعًا بل هو أحد الرجلين وقد سمعانى أكلم الهواء . ساعدانى على العودة فاغتسلت وهرعت لموعدى مع آل مانرنج متأخرًا عشر دقائق . تعللت بالظلام لكن كيتى لم تقبل العذر .

هنا كانت بداية معرفتى بدكتور هيثر ليج ، لأنه كان يجلس بقربنا إلى المائدة يحكى عن المجنون الذى قابله منذ نصف ساعة فى شوارع المدينة يكلم نفســه ..! التقت عينانا فأصابه الحرج والذهول ولاذ بالصمت .. كان يتكلم عنى أنا ..

بعد العشاء قدم لى نفسه . قال لى إنه راقب تصرفاتى ولا يعتقد أنى مدمن خمور ، فأنا لم أذق الخمر طيلة العشاء .. طلب منى أن أذهب لعيادته لنواصل الكلام .

مشيت معه فى الشارع وأنا أتوقع أن أرى الريكشا فى أية لحظة .. بالفعل كانت هناك تمشى خلفنا بنفس سرعتنا ، ووجدت نفسى أحكى للرجل كل شىء .. نفس ما حكيته لك .

قال لى :

ـ « سوف أعنى بك أيها الشاب .. وعندما تشفى ليكن هذا درسًا يعلمك أن تبتعد عن النساء الجميلات والطعام صعب الهضم حتى يوم مماتك .. »

كنت أنظر للريكشا فى رعب .. فقال لى :

ـ « العينـــان يا بانسى .. كــل شىء يعتمـــد على العينين والمخ والمعدة . المعـــدة هى الأقـــوى تأثيرًا .. أنت لديك عقـــل مرهق ومعدة ضعيفة وعينان سقيمتان .. اعتن بمعدتك ولسوف تتحسن حالتك .. أنا مســئول عنك من الآن فصاعدًا لأنك حالة مثيرة فعلاً .. »

كانت الريكشا قد توقفت تحت شجرة صنوبر فتوقفت بدوري.

قال لى هيثر ليج :

ـ « لو كنت تحسب أننى سأمضى الليل البارد هنا بسبب معدة .. بسبب مخ .. بسبب عينين تتوهمان .. فليرحمنا الله .. ما هذا ؟ »

كان هناك صوت انفجار مكتوم .. صوت حوافر وسحابة غبار تعالت أمامنا .. وانهارت نحو عشر ياردات من جانبى التل لتسد الطريق . تأرجحت الأشجار للحظة كالعمالقة ثم هوت أرضًا ، بينما تصلب جوادانا وقد بللهما عرق الرعب . قال الطبيب لاهثًا :

ـ « لو أننا مضينا قدمًا لكنا الآن على عمق عشرة أقدام تحت الأرض !.. لنعد للبيت يا بانسى فأنا بحاجة لاحتساء الشراب .. »

تراجعنا قاصدين دار الدكتور هيثر ليج .

هنا بدأت محاولاته لشفائى على الفور . لم يفارقنى لحظة لمدة أسبوع وقد حمدت الله كثيرًا على أننى وجدت نفسى فى طريق أشهر وأبرع أطباء سيملا . تحسنت حالتى كثيرًا وبدأت أعتنق نظريته بصدد الهلوسة البصرية .. كنت قد كتبت لكيتى أقول لها إن التواء فى كاحلى أرغمنى على البقاء فى البيت بضعة أيام.

كان علاجه بسيطًا .. كان عبارة عن أقراص خلاصة الكبد والماء البارد والتمرينات .. فى نهاية الأسبوع وبعد الكثير من فحص حدقتى ونبضى سمح لى بالرحيل وقال :

ــ « أشهد بأنك سليم العقل .. يمكنك أن ترحل وأن تعبر عن حبك لمس كيتى .. »

كدت أعبر له عن امتنانى لكرمه فقال :

ــ « لم أفعل هذا لأننى أحبك .. أنت ظاهرة علمية لا أكثر .. عليك أن تخرج وترى ما تفعله بعينيك ومعدتك ومخك .. »

بعد ساعة كنت فى غرفة جلوس آل (مانرنج) مع حبيبتى كيتى وأنا ثمل بالسعادة ، وفكرة أننى لن أرى الريكشا ثانية . اقترحت عليها رحلة على ظهر جواد حول جاكو . لم أكن قط أكثر حيوية مما كنت فى ذلك اليوم 30 إبريل.

كانت كيتى سعيدة لتغير مظهرى وقد أحسنت الترحيب بى . تركنا المنزل معًا ضاحكين وانطلقنا نحو (شوتا سيملا) كدأبنا . كنت راغبًا فى بلوغ محمية (سونجولى) لأتأكد من الخلاص . وانطلقت الخيول لكنها ظلت بطيئة فى رأيى .

قالت كيتى :

ــ « ماذا تفعله ؟ »

ــ « لا شىء يا عزيزتى .. لو ظللت فى البيت أسابيع بلا شىء تعمليه لاحتجت للانطلاق مثلى .. »

هنا كانت المفاجأة أننى رأيت عربة الريكشا تسد الطريق بحماليها الذين يلبسون الأبيض والأسود . توقفت وحككت عينى .. آخر ما أذكره أننى كنت راقدًا على الأرض وكيتى تبكى . قلت وأنا أشهق :

ــ « هل رحل ؟.. »

قالت باكية :

ــ « ما الذى رحل ؟.. لابد أن هناك خطأ يا عزيزى .. خطأ شنيع .. »

نهضت وأنا أقول :

ــ « نعم .. خطأ شنيع .. »



ورحت أتكلم بلا توقف وطلبت منها ألا تتخلى عنى . لابد أننى تطرقت إلى علاقتى مع مسز وسنجتون .. لابد .. لأننى رأيت وجهها يشحب ..

فى النهاية قالت :

ــ « شكرًا يا مستر بانسى .. هذا كاف .. »

جاء جوادها فصعدت لتمتطيه .. دنوت من السرج ورفعت وجهى لأسمع رأيها فيما قلته . الإجابة كانت سوط الرّكاب الذى هوى على وجهى من فمى لعينى ثم عبارة وداع لا أذكرها.

كان وجهى مجروحًا ينزف . لقد فقدت احترامى لنفسى . هنا ظهر الدكتور هيثر ليج الذى بالتأكيد كان يتابعنى أنا وكيتى .

قال :

ــ « سوف أجازف بسمعتى المهنية .. »

قلت له :

ــ « لقد فقدت سعادتى .. ولربما كان الأفضل أن تأخذنى للبيت .. »

هنا كانت الريكشا قد رحلت . وكنت قد فقدت الوعى تقريبًا .

بعد سبعة أيام ــ أى فى السابع من مايو - عرفت أننى راقد فى بيت الدكتور هيثر ليج واهنًا كطفل . نظر لى من خلال الأوراق الموضوعة على مكتبه وقال شيئًا مخيبًا للأمل وإن لم يقلقنى .

ــ « آنسة كيتى أرسلت لك خطاباتك .. أنتم معشر الشباب تتراسلون كثيرًا جدًا .. هنا لفافة صغيرة تبدو لى كأنها خاتم .. وهناك خطاب من أبيها سمحت لنفسى بأن أقرأه.. ليس مسرورًا منك"

ــ « وكيتى ؟ »

ــ « تقول إنها تفضل الموت على أن تتكلم معك ثانية .. »

لابد أننى فى خمس الدقائق تلك استكشفت الطبقات السفلى من الجحيم . رأيت الشك والقنوط والتعاسة . ورحت أردد لنفسى :

ــ « أنا فى سيملا .. أنا جاك بانسى فى سيملا .. لا أشباح .. لمَ لم تتركنى أجنيس وشأنى ؟.. لم أؤذها قط .. لكن ما كنت لأعود لأضايقها لو كنت مكانها .. »

نمت حيث أنا حتى اليوم التالى .

وفى الصباح قال لى الطبيب إن البلدة كلها تعرف الآن أننى مريض .. قلت له :

ـ « أنت كنت طيبًا معى يا سيدى .. لكن لا أريد أن أرهقك أكثر من هذا .. »

كنت أشعر بالاضطهاد ، فهناك رجال أكثر شرًا منى بمراحل لكن عقابهم مؤجل لعالم آخر .. لماذا أستحق أنا هذا المصير القاسى ؟

أحيانًا كنت أتخيل أن الريكشا خيال .. ربما كيتى والطبيب والجبال العالية المحيطة بى خيالات كذلك . هكذا راح مزاجى يتأرجح لمدة سبعة أيام . أخبرتنى المرآة أن وجهى ملامحه طبيعية ، ولا يحمل ملامح المعاناة التى مررت بها .. كان شاحبًا لكنه عادى .

فى الخامس عشر من مايو فارقت بيت هيثر ليج واتجهت إلى النادى . هناك كان كل مخلوق يعرف قصتى كاملة بفضل الطبيب الثرثار .. وأدركت أن على أن أمضى باقى حياتى بين الناس .

عندما غادرت النادى رأيت العربة واقفة وخدمها بثيابهم البيضاء والسوداء ، وسمعت مسز وسنجتون تتوسل لى لأن الأمر كان كله خطأ .. مشينا جنبًا لجنب أنا والعربة . مرت بى كيتى على حصان مع رجل آخر .. فتصرفتْ معى كأننى كلب قابلته فى الطريق .. لم تجاملنى حتى بأن تسرع خطواتها.

ووجدت نفسى أردد مرارًا :

ـ « أنا فى سيملا .. أنا جاك بانسى فى سيملا .. لا أشباح"

دنوت من الريكشا وقلت للمرأة بالداخل :

ـ « أجنيس .. هلا نزعت الخمار وكلمتنى ؟.. »

هنا سقط الخمار ووجدتنى وجهًا لوجه مع حبيبتى القديمة الميتة . فى يدها المنديل وعلبة البطاقات .. انحنت للأمام بتلك الإيماءة التى أحفظها جيدًا ، وتكلمت.

من هنا أعتذر لك بشدة لأننى أعرف أنه ما من واحد ، حتى كيتى التى كتبت لها هذه الكلمات على سبيل الاعتذار ، يمكن أن يصدق حرفًا .



لقد تكلمت وأنا أمشى جوار الريكشا كأننى أكلم أية امرأة حية ترزق . ورحت أرمق الناس فى الشارع وذلك الحفل المقام حول بيت الحاكم العسكرى ، فشعرت كأننى أمشى بين أشباح .

ما قالتــه لى فى هــذه المحــادثة الغريبــة لا أســتطيع .. بل لا أجسر على قوله .

لو وصفت لك ما قمت به طيلة الأسبوعين التاليين لما انتهت قصتى أبدًا ، ولنفــد صبرك . كنت أمشى مع الريكشا الشبح كل ليلة وكل صباح فى شوارع سيملا . كانت العربة وسائقوها ينتظروننى فى كل مكان . فى المسرح وبعد أعياد الميلاد وكلما غادرت الفندق . لم تكن تلقى ظلالاً لكنها كانت طبيعية فى كل شىء .. ولأكثر من مرة أنذرت صديقًا بألا يصطدم بها ، ولأكثر من مرة دخلت المتجر وأنا أواصل محادثتى مع مسز وسنجتون أمام العيون المندهشة .

وعرفت أن الكثيرين افترضوا أننى مجنون . لكنى لم أغير حياتى . كنت عاشقًا للمجتمع برغم كل شىء . يصعب جدًا أن اصف لك حالتى النفسية فى هذا الوقت . لم أجرؤ قط على مغادرة سيملا برغم أننى كنت أعرف أن بقائى هناك يقتلنى ببطء .

كنت أموت شوقًا لكيتى وقد راقبت علاقاتها المتعددة مع من جاء بعدى ... بعبارة أدق : من جاءوا بعدى . كانت تمثل جزءًا مهمًا من حيــاتى . فى النهــار كنت أمشى سعيدًا مع مسز وسنجتون وفى الليل كنت أصلى كى أرجع لعالمى .

فى أغسطس 27 كان الدكتور هيثر ليج لا يكل من العناية بى ، وأمس قال إن على أن أطلب إجازة مرضية . طلب للحكومة أن تسمح لى بالفرار من عربة ريكشا وخمسة أشباح . ضحكت ضحكًا هستيريًا عندما سمعت هذا الطلب . قلت إننى سأنتظر النهاية وأنا واثق من أنها قريبة .

هل أموت فى فراشى فى سلام كما يليق بسيد بريطانى ؟ أم فى نزهة بالسوق حيث ترحل روحى لتلتصق للأبد بالشبح ؟.. هل أظل فى العالم الآخر مع أجنيس التى أمقتها للأبد ؟

من المخيف أن تهبط إلى تحت مع الموتى ولما يكتمل نصف حياتك . أشفقوا على وعلى هواجسى .. لأنكم لن تصدقوا ما كتبت هنا . أنا الرجل الذى قضت عليه قوى الظلام ..

أشعر كذلك بالشفقة عليها .. أنا قتلت مسز وسنجتون بالمعنى الكامل للكلمة . وقد جاء وقت دفع الثمن

مكتبة متكاملة
لأشهر الروايات العالمية

روايات عالمية للجيب

74



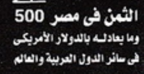
أفضل قصص الأشباح

هذه مسابقة ممتعة فى سرد قصص الأشباح والظواهر الخارقة ، بين مجموعة من الكتاب من بلدان وأزمنة مختلفة .. ثمـة حبكات محكمـة ، وحبكات ساذجة ، وثمة أساليب معقدة عتيقة ، وأساليب عصرية ، وثمة حكايات مرعبة فعلًا ، وحكايات لا جديد فيها .

كلهم يتكلمون عن هذا الشيء الغامض الذى يتحرك هناك فى الطابق العلوى عند منتصف الليل .. وكلهم يحملون شمعدانًا ، ويذهبون ليعرفوا ما يدور هنالك .. تعال نلحق بهم ..

العدد القادم

التنين الأحمـر


الثمن فى مصر 500
وما يعادلـه بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

